Conference on Contemporaneous Parallels with Historical Andalusia,
Doha, Qatar 18 April 2015
(Paper in Arabic)

FACETED APPROXIMATION OF THE ANDALUSIAN TAIFAS AND THEIR COUNTERPARTS IN MODERN ARAB WORLD

ADEL S. BISHTAWI
Historian and Researcher of the Origins of Ancient Arabian Languages

الاستقراب والمقاربة بين طوائف العصر الأندلسي وطوائف العصر

عادل سعيد بشتاوي
مؤرخ وباحث في أصول الحضارات القديمة

The audience of the conference is university students and the public in general prepared by the author at the request of the organizers who were keen on revisiting the post Cordoba Caliphate of the Andalusian history in an attempt to draw certain lessons that may help in overcoming the contemporary parallel fragmentation of the political system in most of the Arab World.

While this particular issue was treated separately in an appendix, the author used the opportunity to draw attention to the misunderstanding that may have been created due to wrong conclusions drawn by some readers of the author's two previous books on Andalusia and the Moriscos and a large number of papers and articles published on the two subjects over the past two decades.

Often, the author is puzzled by comments promising to "liberate" Andalusia in due time or to rejoin it to Islam. Such readers are assured that Muslim Andalusia, or what's left of it, is safe in Christian Spain. The challenge for future Arab generations is to attempt to create a universal, multi-ethic, multi-religious culture similar to that created in Andalusia. The optimists amongst us may see such attempts under way in several countries.

While the history of Andalusia is well documented by Andalusian historians, surprisingly very few attempts have been made by contemporary authors to take the next logical step and attempt to place the history of Andalusia in a suitable universal historical context. Rooted in seminal eastern cultural concepts, the mature Andalusian culture was different in many ways and probably superior in certain aspects and much more universal and vividly colored.
To a large extent the human side of Andalusias remains shadowy. A better job is

believed to have been done by researchers of the history of the Moriscos albeit insufficiently extended to the ancient ancestral roots of the Moriscos. Some Latin American authors have produced original research on cultural and architectural influence of the Moriscos in Latin America. The same is thought by some to have been adequately treated by Arab searchers in works involving the exiled Moriscos in North Africa.

In general, the paper can be described as a revisit of Andalusian history involving research and new reading of both classical historical records, and the author's own locational research accomplished during several extended tours of the entire Iberian Peninsula. Some of the research was incorporated in the two books written by the author while many papers and articles dealt with various topics including the economy of Iberia, science, castles, mathematics, etc.

Attachments to the paper include:

1- The political borders of the Taifa kingdoms,
2- List of Taifa kingdoms after the fall of the Caliphate,
3- The Odyssey of the exiled Moriscos in the New World and Old,
4- A study of the main components of the Andalusian and Northern economies,
5- A number of commissioned political maps of Iberia covering the periods from the conquest to surrender of Granada,
6- Comparative cities map of Iberia of current names and names used by Andalusian,
7- Timeline of Andalusia,
8- Caliphs, princes and kings of Andalusia and the Christian north,
9- Bibliography.

مؤتمر «الأندلس تاريخ نعيشه»

الدوحة – قطر

١٨ ابريل (نيسان) ٢٠١٥

الاستقراب والمقاربة بين طوائف العصر الأندلسي وطوائف العصر

ورقة المؤرخ والباحث عادل سعيد بشتاوي

adel@bishtawi.com

حقوق هذه الدراسة محفوظة للمؤلف

المحتويات

موجز تنفيذي ٤

١ طوائف العصر الأندلسي ٥

1 :1 طريق الأندلس ٥

1 :2 ما هو التأريخ؟ ٦

1 :3 تاريخ إسبانيا وتاريخ آيبرية ٧

1 :4 الثقافة والحضارة ١٠

1 :5 العصر الذهبي في آيبرية ١٢

٢ طوائف العصر الحديث ١٥

2 :1 العصر والآخر ١٥

2 :2 العالم والآخر ١٦

٣ الاستقراب والمقاربة ٢١

3 :1 حضور التاريخ ٢١

3 :2 القرنان الأسودان ٢٥

3 :3 استحضار التاريخ ٢٧

الملاحق: ٣١

- دراسة للمؤرخ عادل سعيد بشتاوي بعنوان: رحلة الأندلسيين الجدد من سقوط غرناطة إلى منافي العالم القديم والجديد
- دراسة في هياكل الاقتصاد الأندلسي والشمالي
- خرائط تطوّر حدود الأندلس من الفتح وحتى تسليم غرناطة
- أهم المدن والمواقع والأعلام في الأندلس مع أسماء المتوافر منها بالحروف اللاتينية
- مختصر المصادر والمراجع التي اهتُدي بها
- أهم الوقائع الأندلسية والدولية في تاريخ الأندلس
- لوائح الخلفاء والأمراء والملوك
- مصادر عربية

مراجع المؤلف وكتبه

عشرون كتاباً منها:

- *الأمة الأندلسية الشهيدة*، تاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت)، ٢٠٠٠.
- *الأندلسيون المواركة*، ثلاث طبعات، القاهرة، دمشق، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥
- *أصل الكلام: لسانا العاربة والعربية وأصولها الجنينية في عصر الحجر* (المجلد الثاني من كتاب الأصول) أبحاث، دار أوثر هاوس، (بريطانيا، الولايات المتحدة)، ٢٠١٣.
- *الأسس الطبيعية لحضارة العرب* (المجلد الأول من كتاب الأصول)، أبحاث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت)، ٢٠٠٠.
- *تاريخ الظلم العربي في عصر الأنظمة الوطنية*، تاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، عمان)، ٢٠٠٥.
- *تاريخ الظلم الاميركي وبداية زمن الأفول الامبراطوري المديد*، تاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، ٢٠٠٧.

(English): *Origin of the Arabic Numerals - A natural history of numbers*, 3rd Edition AuthorHouse Publication 2010.

Bishtawi, Adel S., *The Book of Origins*: Volume I (Arabic): *Natural Foundations of Arab Civilisation: Origins of Alphabets, Numeration, Numerals, Measurements Weights*, *Litigation and Money*, Arab Institute for Studies and Publication 2010.

Bishtawi, Adel S.,The Book of Origins: Volume II (Arabic): *Origin of "Semitic" Languages*, AuthorHouse Publication 2013.

Bishtawi, Adel S., The Book of Origins: Volume III: *Origin of Religion* Scheduled for 2015.

Websites, Pages and Associations:

http://bishtawi.com/ (English)

http://bishtawi.com/ar/ (Arabic)

http://www.arabicnumerals.net/arabic/index_arabic.html (Arabic)

http://www.arabicnumerals.net/index.html (English)

https://plus.google.com/u/0/b/100191404216524196296/100191404216524196296/posts (Etymology - English)

https://www.facebook.com/adel.bishtawi

https://twitter.com/

Google Scholar**:** Adel Bishtawi - Google Scholar Citations

Academia.edu: http://independent.academia.edu/AdelBishtawi

Member of Instittuto Hispano Arabe De Cultura (ARABISMO)

Adel S. Bishtawi (English) http://bishtawi.com/author/

Adel S. Bishtawi (Arabic) http://bishtawi.com/ar/?page_id=28

Book Portfolio: http://bishtawi.com/book-editions-portfolio/

Syrian Writers Association (Co-founder, member of Executive Bureau): http://syrianwa.com/

adel@bishtawi.com

موجز تنفيذي

التاريخ الأندلسي يُقسّم عادة إلى «خلافة» و«ممالك الطوائف»، وبعض المؤرخين يضيف عصر المرابطين أو عصر الموحدين وغيرهم، والبعض يفصل بين ممالك الطوائف ومملكة غرناطة لأسباب لا أجدها، شخصياً، مقنعة لأنني لا أعتقد، أن في اسم «ممالك الطوائف» ما يشين تاريخها. نحن، عرب اليوم، نعيش في «ممالك الطوائف» سواء كان اسمها «سلطنات» أو «جمهوريات» أو «ملكيات» أو «جملكيات». السبب الأهم أن الأندلس، بمجمل عصورها التاريخية، أقدم دولة أوروبية حقيقية بمكوناتها السياسية والحضارية والاقتصادية التكامليّة.

غير صحيح أن مملكة غرناطة «استسلمت»، الصحيح أن أهلها سلّموها إلى إيزابيلا بعد تعهد قاطع ملزم باحترام سلامة أهلها وحضارتهم ودينهم وأطيانهم لم تلتزمه الملكة القشتالية لأن الفاتيكان أجاز لها خرقه، ولأن شغلها الشاغل في العقد الأخير من القرن الخامس عشر كان اللحاق بالبرتغال إلى فضة العالم الجديد وتوابل الشرق.

إذا أُخذ بهذين الاعتبارين ربما قيل إن تاريخ الأندلس واحد عمره نحو ثمانية قرون، فروقه اعتماد التقويم الشمسي أو القمري لأن الفارق بينهما كبير، ويمكن أن يُضاف إلى القرون الثمانية قرن تاسع احتاجته قشتالة، وهي جزء من إسبانيا التي اعتُمد اسمها في وقت لاحق، للتخلّص من معظم الأندلسيين الموريسكيين، ثم قرون أخرى لاحقة لطمس المعالم الأندلسية التي بقيت أكثر بكثير مما يود الاسبان الاعتراف به فعادوا وتبنّوه، والبعض اعتبره جزءاً أساسياً من تاريخهم ومكوناً حضارياً يستحق أن ينتمي البعض إليه لأن الفرنسيين، وغيرهم، رأوا أن حدود أوروبا الغربية تتوقف عند البيرينيه، أي أنها لا تشمل إسبانيا التي أخرجت للعالم شخصية دون كيخوتي لكنها أخرجت أيضاً محاكم التفتيش التي أزالها من الدنيا الفرنسيون لا الاسبان، وكانت في اعتبار أباطرتهم جهاز المخابرات الدينية التاريخي بلا منازع.

ثيمة هذا المؤتمر سائرة مستوقفة. سائرة لأن هذه الورقة بدأت بتأصيل التاريخ، وهو واضح في البت أنه الأحداث التي وقعت وراءنا بالمعنى العضوي، لذا ليس هناك تاريخ أمامي إلا في المجاز والسحب. الوضع هنا وضع تاريخ معين لمنطقة معينة صارت تنتمي إلى عالم يُطلّ عليه من عالم آخر هو عالم الآن. الكلمة الثالثة «نعيشه» فهذا يعني أن التاريخ الأندلسي فعل سائر.

هل يعني أن تاريخ الأندلس لم ينته؟

إذا لم ينته فما هي دلالات استمراره؟

إذا أريد للتاريخ الأندلسي أن يكون تاريخاً نعيشه لا تاريخاً نعرفه فربما كان علينا أنسنة التاريخ الأندلسي. أهل الأندلس ليسوا مستحاثات بشرية. دمهم ودمنا واحد من الأجداد أنفسهم، قل أو كثر، ودمهم في ملايين الاسبان وربما غيرهم. ليُقرأ التاريخ الأندلسي إذن، وليتابع الباحثون دراساتهم الأندلسية الموريسكية لأنسنة الأندلسيين، لكن لا تقرأوا تاريخ الأندلس لمعرفة المجد الذي كان، اقرأوه لصنع أندلس أخرى ربما أكثر مجداً وإنسانية وإخاء بين أصحاب الأديان وأصحاب الأعراق.

الأندلس بَصَمَتْ ضمير التاريخ والانسانية برسائل عدّة ربما كانت هذه أهمها في المطلق. هي رسالة سائرة، إذاً، وثيمة سائرة، واحتفالية في أقصى الجناح الشرقي من وطن العرب بما حققه الأندلسيون في أقصى جناحه الغربي.

الاستقراب والمقاربة
بين طوائف العصر الأندلسي وطوائف العصر

١ طوائف العصر الأندلسي

1:1 طريق الأندلس

لم أذهب إلى إسبانيا في نهاية ثمانينات القرن الماضي لجمع المادة الصالحة لكتاب جديد في شأن الأندلس لأنني لم أكن أعتقد أن القارىء العربي في حاجة إلى مؤلَف تاريخ أندلسي جديد لأن المؤرخين الأندلسيين عرفوا تاريخهم جيداً وكتبوا تاريخهم جيداً وكتبهم مُتاحة لمن يرغب، فماذا يُضيف مؤرخ مشرقي إلى مؤرخي الأندلس الذين لم يكتبوا تاريخ بلادهم العظيمة وحسب وإنما كتبوا في الوقت نفسه تاريخ حضارة غاية في التميز والانسانية والابداع ربما قيل إن أهل الزمان التالي لم يكتبوا عن حضارة مثلها لأن العالم لم يستطع، بعد، بناء حضارة مثلها.

وكنت درست تاريخ الأندلس كما ملايين العرب، وكنت أعتقد أنني أعرفه جيداً، وأعرف مواقع مدن الأندلس وأنهرها وجبالها، واستطيع تتبّع الدرب الذي سلكه ابن جبير في طريق العودة إلى غرناطة لأن معظم المدن والقرى التي ذكرها في كتابه لا يزال في الأندلس التي عرفها. لكن حدث أن كنت أزور صديقاً بريطانيا فوجدت في مكتبته نسخة قديمة من كتاب ستاني لين-بول «الأندلسيون في إسبانيا».[1] الاسقاط التاريخي في كتاب لين-بول غاية في الشفافيّة فربما لن ينتبه إليه من لا يعرف جيداً تاريخ الصراع المرير بين بلاده التي تحوّلت عن الكاثوليكية وبين إسبانيا فيليب الثاني الذي اعتبر نفسه حامي الكاثوليكية في عالمه وعدو الخارجين عليها وعلى باباواتها. الأندلسيون، إذاً، كانوا أيضاً أعداء فيليب الثاني، لكن انكلترا كانت العدو الأخطر، فخاض معها حرباً لا تقل شراستها عن الحرب مع الأندلسيين انتهت في عصور خلفائه بصعود إنكلترا وانهيار الامبراطورية الاسبانية التي ربما قيل إنها هزمت نفسها قبل أن يهزمها الانكليز والأندلسيون لأنها كانت في الواقع حرباً ضد حضارتين أكثر تميزاً وإنسانية من حضارة إسبانيا التي استولدها رحم محارب اسمه «حروب الاسترداد». رحم إسبانيا رحم بطّاش لا إخاء له مع الأديان والمذاهب الدينية الأخرى ولا تصالح بشعار يبدو أنه كان «إن لم تكن كاثوليكياً فوق الأرض فأنت دفين تحتها».

إذاً ذهبت إلى إسبانيا وزرتُ الاسكوريال الذي هو أقرب إلى الأديرة والصوامع منه إلى قصور الأباطرة، وحججت إلى مكتبته، ثم خرجت بعد ساعات راغباً ومتعجباً في آن من بيت بناه فيليب الثاني لتخليد نفسه وكاثوليكيته وثقافته وإذ بمخطوطات حضارة الأندلسيين في مكتبته تخلّد قصر هذا الأمبراطور المحارب وذِكراه لأنني أعتقد أنها أهم كنوزه الحضارية. المكان الذي لا يطيق القلب الخروج منه هو غرناطة لكن في الليل لا في

---

1 http://www.gutenberg.org/files/37223/37223-h/37223-h.htm رابط تنزيل الكتاب مجاناً

النهار. مختلطاً مع خرير الماء الهامس يأتيك همس الشباب والصبايا والأكف الراغبة على الأفواه لكبت الضحك الخافر في غرف قصور غرناطة. هنا تستحضر أناشيد الحب نفسها بنفسها:

ترقّــب إذا جــنّ الظــلام زيــارتي فإنّي رأيت الليـل أكـتم للســر

وَبي منك ما لو كانَ بالشمسِ لم تلح وبالبدر لم يطلع وَبالنجم لم يسـرِ

نصيحتي لمن سيذهب إلى غرناطة في الليل لمحاورة أجداده الأندلسيين بالهمس والخيال أن يتجنّب ما فعله هذا المؤرخ ويذهب وحيداً. ذهب برفقة صديقة فوجد نفسه بعد ساعتين في القصر عاشقاً وفي حدائق غرناطة طالباً وعند الباب الخارجي خاطباً وبعد شهر زوجاً ولا تزال تلوم غرناطة على قبول متسرّع في لحظة ضعف تحكم فيها القلب بالعقل على هواه، كما هي عادته مع الجميع.

2: 1 ما هو التأريخ؟

لغوياً «أرخ» نسيلة الأصل الثنائي «أر» بإضافة الخاء، وهذا الأصل ومقلوبه «رأ» من أهم الفصائل اللغوية ليس في تاريخ العربية بل في تاريخ البشر لأن مشتقاتها في اليونانية القديمة *eros* و *erasthai* ولهما ثبتان في العربية الحديثة «أرش» و«إرث». بما أن الكلام من عصر الحجر فالأصل الثنائي «أر» جامع للمعاني في الحالة البيانية: **أرخ**: «ورَّخ الكتابَ بيوم كذا لغة في أَرَّخه». نسيلة أخرى هي هذه: **ورك**: «الوَرِكُ: ما فوق الفَخِذِ؛ في حديث إبراهيم أنه كان يكره التَّوَرُّكَ في الصلاة، يعني وضع الأَلْيَتَيْن أو إحداهما على عَقِبَيْه». من معاني **أرش**: «أَرَّشْت بين الرجلين إِذا أَغْرَيت أَحدهما بالآخر». لماذا يجمع الأصل الثنائي «أر» التأريخ والرغبة والورك، أي مقعدة الانسان؟ لأن هذا هو التأريخ الطبيعي: كل ما يحدث خلف الانسان وراءه، لهذا يُقال عن التاريخ «أبو الورى».[٢]

لكن ليُلاحظ رجاءً أن التأريخ ليس تأريخ الأحداث لا غير، كما في معظم كتب التاريخ، بل تأريخ الأحداث والناس الذين تأثّروا بها. الفرق، في رأيي، مهم جدا فهو، مثالاً، بين كتاب لين-بول وبين كتب مثل *تاريخ دولة الإسلام في الأندلس*، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، *الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي*، *التاريخ الإسلامي الوجيز*، *معالم تاريخ الأندلس والمغرب*، وغيرها عشرات من كتب التآليف النقليّة. أين الإنسان الأندلسي في مثل هذه الكتب؟ أين وصف ملابس الأندلسيين؟ كيف كان رمضانهم؟ ما هي أشهر وجبات المطبخ الأندلس؟ ما هي مراسيم حفلات الخطبة أو الزواج؟ ماهي أشهر أغانيهم؟ ماذا كان الصبية والصبايا يتعلمون في مدارسهم؟، ومثل هذه الأسئلة عشرات لم يُجب عنها أو لم يُجب عنها بما يكفي لابقائها حيّة في ذاكرة قارىء اليوم.

وكنت أقول لأصدقائي وزملائي الناشطين في الدراسات الموريسكية إن أبحاثهم أصليّة ومنهجيتهم البحثية مثالية وعرضهم شمولي، وإسنادهم أكاديمي صحيح لكن أجد نفسي وأنا أقرأها أنني أقرأ سير مستحاثات بشرية وتاريخ المستحاثات الأندلسية والموريسيكية. لين-بول درس مراجع الأندلس المتاحة وعشق الأندلس وأهلها فوضع تاريخاً إنسانياً وكتابه لا يزال حيّاً. معظم الكتب الأخرى بين يدي الباحثين وعلى رفوف المكتبات لكن ليس بين أيدي الشباب والشابات اليوم.

٢ انظر: بشتاوي، عادل سعيد، *أصل الكلام: لسانا العاربة والعربية وأصولها الجنينية في عصر الحجر*، أوثر هاوس، ٢٠١١.
http://www.amazon.com/Origin-Semitic-Languages-Arabic-Edition/dp/148179888X

يستطيع المؤرخ الراغب أن يكتب كتاباً مثل «تاريخ الاسلام في الأندلس» لكن يستطيع كاتب آخر أن يكتب كتاباً مثل «تاريخ النصرانية في الأندلس» أو «تاريخ اليهودية في الأندلس». المصادر التي يمكن الاستعانة بها لوضع الكتب ثلاثة مُتاحة في التاريخ الأندلسي نفسه، ويمكن استخلاص زواياه المضيئة، لكن ما يميز التاريخ الأندلسي أنه ليس تاريخاً إسلامياً لا غير، وليس تاريخاً نصرانياً لا غير وليس تاريخاً يهودياً لا غير بل تاريخ الأديان الثلاثة وأهل الأديان الثلاثة، لذلك يقول اليهود إن العصر الفكري الذهبي الوحيد الذي عرفوه في تاريخهم البعيد كان في الأندلس، الأرض التي أحبها الله وأحب أهلها لأن أصحاب الأديان الثلاثة كانوا يرفعون معاً أيديهم إليه بالشكر والعرفان، ولا يُعرف أنهم سفكوا دماء بعضهم البعض في سبيل رب هو ربهم جميعاً.[٣]

هذا المؤرخ المشرقي وجد أن زيارة إسبانيا ملزمة مدنياً على المشارقة مثلها مثل الحج الديني لا لأنه قرأ *تاريخ دولة الإسلام في الأندلس* أو *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* بل لأنه قرأ كتاب لين-بول. هو لم يخصص اسبوعاً لغرناطة لأنه قرأ أشياء عن غرناطة في كتب مثل *التاريخ الإسلامي الوجيز ومعالم تاريخ الأندلس والمغرب* بل لأنه قرأ كتاب واشنطن ارفينغ *تاريخ احتلال غرناطة* خلال إقامته في المدينة سنة ١٨٢٩. أرفنغ كان موسوعة زمانه وله كتب كثيرة أشهرها كتابه عن غرناطة التي أحبها فأحبها معه كل من قرأ الكتاب. حكام إسبانيا لم ينتبهوا إلى عظمة غرناطة إلا في كتابه؛ أعمال ترميم غرناطة التي كانت خرابة في زمانه لم تبدأ إلا بعد صدور الكتاب.

عدد سكان إسبانيا نحو ٤٧ مليون نسمة (٢٠١٤)، عدد السياح في السنة نفسها نحو ٦٥ مليون نسمة. عدد من زار تل غرناطة (القصور والحدائق والقلاع) في السنة نفسها ٢,٤ مليون يرتفع إذا أضيف إلى الرقم عدد من يحضر الحفلات والنشاطات الثقافية إلى ٣,١ مليون شخص.[٤] ليس في إسبانيا مكان يُزار بهذا العدد الذي يساوي عشرين في المئة من عدد زوار مصر (١٥ مليوناً – ٢٠١٠) بكل ما فيها من أهرامات ونيل وكنوز نادرة، لكن المقارنة، ربما، بعدد سكان غرناطة نفسها: ٢٤٠ ألفاً ربعهم طلاب. من عجب عجائب الدهر، إذاً، أن الملايين يأتون إلى غرناطة كل سنة من كل مكان تقريباً ليعيشوا أياماً مع الأندلسيين في عقر الدار الاسبانية التي بناها أباطرة قشتالة على هياكل الأندلس. هي حالة لا تعرفها الدول الأخرى: هزيمة الأندلسيين عسكرياً على يد القشتالة كان حالة تاريخية عابرة، انتصار حضارتهم أبدي لأن غرناطة صرح تراث الانسانية تالياً لكنه صرح حضارة الأندلس أولا.[٥]

3:1 تاريخ إسبانيا وتاريخ آيبرية

في إسبانيا تاريخ إسباني وفي شبه جزيرة آيبرية تاريخ أندلسي يعترف معظم الاسبان بهما لكن صوتهم في التاريخ الثاني خافت لا لمأخذ على التاريخ الأندلسي بل، ربما، لأن الاعتراف به جهراً ربما دفع ألوف نسل الأندلسيين في البلاد المغاربية إلى المطالبة بتعويضات قريبة من تعويضات اليهود الذي طُردوا من إسبانيا في القرن الخامس عشر.

---

٣ عرف اليهود في ظل الممالك النصرانية مستويات متباينة من النمو والنفوذ المالي والاقتصادي وحتى الفكري في بعض الحالات، إلا أن العصر الذهبي اليهودي كان انتهى قبل ذلك بوقت طويل مخلّفاً بعض أشهر الفلاسفة والمفكرين والعلماء الذين عرفتهم اليهودية في تاريخها كلّه مثل ابن ميمون الفيلسوف، وابن الفوال الطبيب والفيلسوف، ومروان بن جناح الذي عُني بالمنطق ومثله ابن جبيرول، وابن بكلارش الطبيب، وأبو الفضل حسداي الذي برع في علم العدد والهندسة والنجوم والموسيقى والمنطق وغير هؤلاء العشرات. ويقول المؤرخ بيلي: «حيثما تقدمت سيوف العرب رأيتَ اليهود وراءهم دائماً، وفيما قاتل العرب تاجر اليهود، وعندما سكنت الحرب اشترك اليهودي والعربي والفارسي في تحصيل العلم والفلسفة والفنون والعلوم فكان هذا مما ميّز العرب ورفع شأنهم في العصور الوسطى»:
Bleye, Pedro Agudo. *Manual de historia de Espana*, (Madrid 1963), I, p. 647.

[4]http://spanishnewstoday.com/record-visitor-numbers-at-the-alhambra-palace-in-granada_20802-a.html#.VOyDJHzF_2M

[5] World Heritage Site - Alhambra, Generalife and Albayzín, Granada - UNESCO

إذا لم يكن التعويض المالي الشاغل الأساسي فربما كان إصرار الملك خوان كارلوس على عدم اعتذار بلاده عن نفي الأندلسيين الجدد (الموريسكيين)، وهم بملايين قليلة، والبعض يقول بمئات الألوف، فيما اعتذر لليهود وهم يُعدّون على أصابع الألوف القليلة.

التاريخ الأندلسي يُقسّم عادة إلى «خلافة» و«ممالك الطوائف»، وبعض المؤرخين يضيف عصر المرابطين أو عصر الموحدين وغيرهم، والبعض يفصل بين ممالك الطوائف ومملكة غرناطة لأسباب لا أجدها، شخصياً، مقنعة لأنني لا أعتقد، أن في اسم «ممالك الطوائف» ما يشين تاريخها فنحن، عرب اليوم، نعيش في «ممالك الطوائف» سواء كان اسمها «سلطنات» أو «جمهوريات» أو «ملكيات» أو «جملكيات».[٦] السبب الأهم أن الأندلس، بمجمل تاريخها، أقدم دولة أوروبية حقيقية بمكوناتها السياسية والحضارية والاقتصادية التكامليّة. غير صحيح أن مملكة غرناطة «استسلمت»، الصحيح أن أهلها سلّموها إلى إيزابيلا بعد تعهد قاطع ملزم باحترام سلامة أهلها وحضارتهم ودينهم وأطيانهم لم تلتزمه الملكة القشتالية لأن الفاتيكان أجاز لها خرقه، ولأن شغلها الشاغل في العقد الأخير من القرن الخامس عشر كان اللحاق بالبرتغال إلى فضة العالم الجديد وتوابل الشرق. إذا أُخذ بهذين الاعتبارين قيل إن تاريخ الأندلس واحد عمره نحو ثمانية قرون، فروقه اعتماد التقويم الشمسي أو القمري لأن الفارق بينهما كبير، ويمكن أن يَضاف إلى القرون الثمانية قرن تاسع احتاجته قشتالة، وهي جزء من إسبانيا التي اعتُمد اسمها في وقت لاحق، للتخلّص من معظم الأندلسيين (الموريسكيين)، ثم قرون أخرى لاحقة لطمس المعالم الأندلسية التي بقيت أكثر بكثير مما يود الاسبان الاعتراف به فعادوا وتبنّوه، والبعض اعتبره جزءاً أساسياً من تاريخهم ومكوناً حضارياً يستحق أن ينتمي البعض إليه لأن الفرنسيين، وغيرهم، رأوا أن حدود أوروبا الغربية تتوقف عند البيرينيه، أي أنها لا تشمل إسبانيا التي أخرجت للعالم شخصية دون كيخوتي لكنها أخرجت أيضاً محاكم التفتيش التي أزالها من الدنيا الفرنسيون لا الاسبان وكانت في اعتبار أباطرتهم جهاز المخابرات الدينية التاريخي بلا منازع.

هذا الانتقال لم يكن معقداً ولا بسيطاً، إذ سقطت الأندلس قطعة بعد قطعة، ولهث أهل الشمال في اندفاعهم نحو الجنوب لتحقيق جملة من الأهداف، ليس أهمها استعادة ملك القوط الغربيين قبل الفتح لأنّ الاهتمام بإعادة بناء الحضارة القوطية المتواضعة لم يكن في الوارد. ولم يكن أهم دوافع التقدم الدين، لأن احتلال الأراضي الأندلسية لم يُتبع بالتنصير الإجباري، ولم يلغ ملوك الشمال الأديان الأخرى فبقي الإسلام واليهودية دينين، اعترفت السلطة النصرانية بوجودهما حتى آخر القرن الخامس عشر. ولم يكن من بين الأهداف الرئيسية تخليص النصارى من قبضة الأندلسيين العرب لأن الجنوب سكنته غالبية مسلمة، ولا نشر الحضارة القشتالية لأنها كانت حضارة بدائية الحطام لا يمكن مقارنتها بالحضارة الأندلسية الرائدة في أوروبا.

وكيفما قلّب الباحث في الأسباب التي دفعت ملوك الشمال لاحتلال الجنوب، فإن العامل الاقتصادي يبقى متفوقاً على غيره في حالات كثيرة. لو كان ملوك الطوائف بفقر ملوك الشمال، أو لو كانت الأراضي الأندلسية بوعورة الأراضي التي قامت عليها الممالك المسيحية الأولى، لربما كان تاريخ الأندلس غير ما آل إليه. في الفترة بين القرنين الثامن والعاشر بات من الواضح أن فرصة بقاء الأندلس مملكة إسلامية ضعيفة لأن ممالك الشمال طوّرت قدرات عسكرية ودينية وإدارية لا يمكن إزالتها إلا بإزالة الممالك تلك. لو أن حملات المنصور المظفرة على الشمال استهدفت خلخلة تلك القواعد، لربما تأجلت عملية اجتياح الجنوب مئات السنين حتى من دون تدخل المرابطين

---

٦ انظر القسم: ب – الجملكية العربية في: بشتاوي، عادل سعيد، *تاريخ الظلم العربي في عصر الأنظمة الوطنية*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦، ص ١٥٩.

والموحدين والمرينيين في ما بعد.

لكن ذلك لم يكن ممكناً.

ما استبعده ملوك الأندلسيين طبّقه الشمال بصورة تَرتضي أن يُطلق عليها ما يوصف اليوم بـ«حرب الإبادة» و«التطهير الديني» لا العرقي فلينظر الناظر إلى وجوه الاسبان فلعله يرى بينهم وجهه ووجه ابنته. الذي اكتشفه ملوك الشمال هو أن السيف يمكن أن يدرّ على الخزانة أضعاف ما يمكن أن يقدمه العمل المضني في الحقول أو التجارة والصناعة. لذا ابتزوا ملوك الأندلس حتى قل الذهب فتقدمت جيوش الشمال، التي ضمت ألوف فقراء فرنسا، عبر البيرينيه، وأخذت مصادر الثروة ذاتها، ووزعوا الأراضي على المحاربين عندما شح الذهب والفضة.

ولم يكن تقدم الشماليين في البداية نتيجة قلة الحروب، إذ كانت الغزوات ضد الشمال جهادا سنوياً. وخاض المسلمون في أراضي الأندلس أكثر من ٢٠ معركة رئيسية ولا بد ان يكون عدد المعارك الجانبية والمناوشات العسكرية بالمئات. في الفترات التالية من تاريخ الأندلس كانت الحروب ضد الشماليين استنزافاً هائلاً لقوى الشمال المغربي، وربما استشهد الملايين في الحروب الأندلسية دفاعا عن الأرض والعروبة والإسلام. لكن المدد الأوروبي تفوّق في القرن الثالث عشر على مدد العدوة وسقط المشرق نهب الانقسام والفرقة وجيوش هولاكو وغيره من الغزاة. وما من فائدة ترجى في الإشارة إلى المساعدة الهائلة التي قدمها عرب الأندلس وبربرها، لكي يحقق نصارى الشمال انتصاراتهم الكبيرة، سواء عن طريق الروح الانهزامية، أو عن طريق مشاركة الشماليين الفعلية في حرب باقي الأندلسيين. ويوم سقطت غرناطة تطلع الأوروبيون إلى قشتالة تطلعهم إلى المملكة التي حققت للمسيحية ما لم تحققه كل الحملات الصليبية، ودقت أجراس الكنائس في كل مكان عندما ارتفع الصليب على قصبة الحمراء بعد قرنين من إزالته من فوق أسوار عكا اثر إزالة آخر ممالك الصليبين في المشرق.

إذا كانت أوروبة اليوم وليدة حروبها الدينية الطويلة وصراعها السياسي الدامي، فإن إسبانيا وليدة الحروب التي خاضها القشتاليون مع الأندلسيين وأهل المغرب. خلال تلك الحروب صنعت قشتالة الأطر الإدارية والاجتماعية والسياسية، وتطورت الشخصية الإسبانية التي تمكّنت في القرن السادس عشر من بسط سيطرتها على مساحات شاسعة من العالمين القديم والجديد، وتركت تأثيرها في صورة أو أخرى في شعوب كثيرة من كوبا إلى الفلبين. ربما كانت السمات الخاصة التي اكتسبتها الشخصية الإسبانية هي التي مكّنتها من أن تحقق في العالم الجديد ما لم تستطيع أي دولة أوروبية أخرى تحقيقه بما في ذلك إفناء الملايين، والقضاء على حضارة الازتك والمايا وغيرهم في أمريكا اللاتينية.

الصفات الخاصة التي ميزت القشتالي عن غيره من سكان أوروبة كانت الصفات التي أعاقت إسبانيا عن اللحاق بالتطور اللاحق الذي عرفته جاراتها. في المقابل كانت مرونة الهولنديين والفرنسيين والإنكليز عاملاً مهماً في تغيّر مراكز القوى لصالحهم في وجه الشخصية الإسبانية المتصلبة. ربما تمكّن جيش قشتالة، الذي خرج من تحت عباءة حرب عَشرية مع غرناطة، من تحقيق الانتصار تلو الآخر على فرنسا لكن القشتاليين لم يتمتعوا باحترام الفرنسيين لهم. كان القشتالي بالنسبة للفرنسيين فارسا ررث الثياب ينادي بالسيطرة على العالم. أحد الفرنسيين وصف الإسبان في القرن السادس عشر بالقول: «أذهانهم، أي الإسبان، مملوءة بأحلام العظمة، وهم يفضلون البؤس أو خدمة أحد النبلاء على الاشتغال في بعض الحرف أو الصناعات».[٧] سيرفانتس ربما لخص شخصية أبناء بلده حين قال على لسان دون كيخوتي: «إن صدق الإنسان يكمن في أحلامه»،[٨] ويكرر فكرة مماثلة فيقول: «ليس

---

[7] Defourneau, Marcelin, *Daily Life in Spain in the Golden Age*, p. 23.

[8] "*The truth lies in a man's dreams... perhaps in this unhappy world of ours whose madness is better than a foolish sanity.*"

هناك أبغض من التعقل.»

الإسبان الذين تمكّنوا من رفع سلطتهم على أنقاض الممالك الإسلامية في الأندلس، أخفقوا في تقديم حضارة بديلة إذ نقل العرب إلى شبه الجزيرة جنداً وحضارة ولم ينقل الشماليون إلا الجند الذين قوّضوا البنى الحضارية الأندلسية، أو استعاضوا عنها بأشكال ممسوخة ليس فيها رونق الأصل ولا ديمومة البناء. انتقال السلطة إلى الشمال أدى بالضرورة إلى تغيير ملامح الأندلس العربية، إذ لم يكن من الممكن مقاتلة العرب والسماح لحضارتهم بالبقاء، أو حتى الاعتراف بتلك الحضارة. التأثير كان أعمق من أن يزيله الجند. إذا رأى بعض المؤرخين أن الحضارة الأندلسية لم تُحدث في القشاتلة التأثير الكبير الذي أحدثته في نمط تفكير وحياة المرابطين فلعل عيون هؤلاء المؤرخين تنظر في مكان فيما التأثيرات خفيّة في مكان آخر.

4: 1 الثقافة والحضارة

الثاء ليست من حروف العاربة لذا يبدو أن أصلها سين، أي «سقف». الكلام القديم صور لا مجرد حروف منطوقة. الصورة صورة بيت بلا سقف وبيت بسقف. الفرق بينهما، كما يبدو، هو الفرق بين البيت المسقوف والبيت غير المسقوف. إذا أسقط الراغب الصورة على الناس فربما عرف ما هو الفرق بين المثقف وغير المثقف. الضاد هي الأخرى ليست من حروف العاربة لكن لها اتصال بعبادة الشمس (ضحى، والأضاحي)، فربما كانت من الصاد بدل. إن كانت فهي «حصر» أخرجها الناس قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة للدلالة على نوع جديد من العمارة هي المدن ذات الأسوار التي حكمها الملوك الكهنة، لذا يُقال في معجم مثل *لسان العرب* «حَصَرَهُ يحصره حَصْراً: ضيق عليه وأَحاط به، والحَصِيرُ: المِلِكُ سمي بذلك لأَنه مَحْصُورٌ أَي محجوب». النسيلة الأهم من الأصل الثنائي *حص هي «حصن» فكانت أسوار الحصون الأقدم من الحصى المُراكم، ولا يزال بعض الأسوار المصنوعة من الحصى قائماً في جزيرة العرب.

هاتان (حصر، حصن) لفظتان عربيتان حضاريتان بامتياز، فالعرب أصحاب حضارة قديمة سبقتها ثقافة أقدم. توجد «حضارة» أوروبية وحضارة هندية أو صينية، لكن ليس من المتعارف عليه القول بوجود «حضارة» أميركية أو إسبانية، بل «ثقافة». المدهش، إذاً، أن الكيان الأندلسي الذي سبق إسبانيا كان «حضارة»، لكن اسم «الحضارة» انقطع في عصر سيادة الاسبان. الحضارة العربية أكثر تطوّرا مما كان في شبه جزيرة آيبرية قبل الفتح، لكن يبدو أن الحضارة لا تكون حضارة إذا فرضها الغازي أو المحتل. إذا لم تكن أكثر تميزاً من القائم فالقائم سيستمر، وربما طغى على الجديد. لعل هذا هو السبب في أن الفرنسيين استعمروا الجزائر واحتلوا المغرب وتونس وسورية ودولاً افريقية عدّة فبقيت حضارتهم ولغتهم فيها لكنها رحلت مع رحيل الفرنسيين من الدول العربية ولم يبق فيها سوى قبور الفرنسيين.

الانطباع أن جميع سكان الأندلس كانوا يتكلمون العربية لا يبدو صحيحاً. الأقرب إلى القبول أن العربي الذي جاء مع الفاتحين أو ارتحل إلى الأندلس وبدأ حياة جديدة كان يتكلم العربية مع العرب ويتكلم لغة زوجته في البيت. أبناؤه كانوا ينطقون بالعربية لأنها لغة والدهم ودينهم، لكنهم كانوا ينطقون بلغة أمهم وأخوالهم. أحد أسباب إجبار محاكم التحقيق (التفتيش) الأندلسيين الموريسكيين، واليهود، على وضع علامة على ثيابهم أن عمال المحاكم لم يكونوا قادرين على التفريق بين المسلم المتنصر بالقوة والمرسوم والنصراني «القديم». الانطباع أن الأندلسيين كانوا سمراً غير صحيح. كثيرون كانوا شقراً. الطريقة الوحيدة للتعرّف على المسلم المتنصر كان إجباره على إنزال سرواله لكي يُعرف إن كان ختن أم لا.

العربية حلّت محل اللاتينية الكنسية لغة التعبير الأولى، وهجرت أعداد كبيرة من الكاثوليك المسيحية إلى الاسلام، وطال تأثير الفكر العربي والاسلامي كثيرين من النصارى،[٩] واعتمد كثيرون من أهل البلاد عادات وتقاليد عربية. عرب كثيرون في المقابل كانوا يتقنون اللاتينية واللهجات المحلية التي شملت القشتالية والبلنسية والأرغونية والبشقية (البشكنسية). إلا أن اكتمال نمو الشخصية الأندلسية وشيوع التعليم أدى إلى زيادة الاعتماد على العربية، وساهم في ذلك اتخاذ بعض الأمراء إجراءات أدت إلى سيادة العربية مثل قرار هشام الأول اعتماد اللغة العربية لغة التدريس في المعاهد النصرانية واليهودية.[١٠]

وكان من الطبيعي ان يستمر اضمحلال الحضارة الآيبرية مع استمرار ضعف المؤسسات التي كان من الممكن ان يضمن لها الاستمرار، بينما ترسّخت الحضارة العربية في البلاد مع استمرار صقلها وردفها بالتأثيرات المشرقية المختلفة. ولعبت تأثيرات أخرى أدوارها في تقليص النفوذ الذي تمتع به نصارى الأندلس في الجنوب خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، حين أدت بعض المضايقات التي تعرض لها هؤلاء إلى ربط مصيرهم بملوك الشمال مما أدى إلى انسحاب أعداد كبيرة منهم، وتغريب أعداد أخرى إلى فاس ومكناس وغيرها من المناطق المغربية. وكان اشتداد الضغوط في الجنوب بدخول الموحدين وغيرهم وتعاظم قوة الشمال من أسباب رحيل أعداد إضافية من المعاهدين مما أدى إلى اكتساب الشمال خبرات كان يفتقدها لكنه ساهم في المقابل في كثافة العنصر الأندلسي في الجنوب. في الحالات التي طور فيها الشمال بعض المهارات الحرفيّة أو العمرانية ربما كان السبب، في الغالب، المهاجرين النصارى أو اليهود الذين نزحوا إلى الشمال لسبب أو آخر. حين بدأت إسبانيا في ترسيخ شخصيتها على الأراضي الأندلسية التي احتلتها بقي التأثيران الفرنسي والأندلسي الطابع العام، وإن غلب أحدهما على الآخر طبقاً لكل منطقة من إسبانيا.

بما أن الحضارة العربية والعادات المشرقية كانت المتفوّقة في الأندلس، كان من الطبيعي أن تؤخذ تلك العادات على أنها العادات المتفوقة التي تميز الذوق الرفيع عن غيره. لذا قلد ملوك الشمال الأندلسيين في المأكل والملبس والثياب والتسليح، وتداولوا الدينار القرطبي إلى جانب العملات الرئيسية في تلك الفترة، واستمتعوا بالشعر والمرويات العربية. واستمر هذا التأثير إلى مراحل متقدمة من تاريخ قشتالة بعدما سقط معظم الأراضي الأندلسية بأيدي ملوكها.

المعروف، مثلاً، أن ملوك الشمال كانوا يستوردون الملابس المزركشه من الجنوب بعدما ظلت ملابس البلاط الملكي قروناً عدّة. الملك القشتالي إنريكو الرابع (١٤٥٤-١٤٧٤) كان يرتدي الملابس الأندلسية ويحتفظ بحرس ملكي أندلسي في بلاطه. الملك الأرغوني ألفونصو الخامس (١٤١٦-١٤٥٨) اعتاد ان يصطحب معه في رحلاته إلى إيطاليا المغنين والراقصين الأندلسيين.[١١] ملوك، مثل ألفونصو الثالث (٨٦٦-٩١٠) لجأ إلى مربين قراطبة لتربية أبنائهم، بينما كانت شخصيات مثل شخصية «السيد» مغرمة بالسير العربية.[١٢] في فترات لاحقة اشتهر الملك ألفونصو العاشر (١٢٥٢- ١٢٨٤) بإقباله على العلوم العربية، وكان وراء الحض على ترجمة الأعمال العربية في طليطلة بكثافة. حتى شخصية متعصبة مثل الكردينال خمينيس (خمينيث) رأى في الثقافة العربية أهمية عظيمة إذ أمر بإحراق الكتب الدينية في نهاية القرن الخامس عشر، إلا أنه استبقى أعداداً كبيرة من كتب الطب والعلوم الأخرى.

التأثّر بالعادات الإسلامية والأندلسية انتقل إلى نصارى كثيرين، فكانوا يختنون أولادهم ويتخذون الجواري،[١٣]

٩ انظر: بدر، أحمد، *دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها*، ص ٢٠٠.
١٠ انظر: عنان، محمد عبد الله، *دولة الاسلام في الأندلس*، (القاهرة ١٩٦٩)، ج ١، ص ٢٢٩.
١١ انظر: بشتاوي، عادل سعيد، *الأندلسيون الموارکة*، (طبعة القاهرة، ١٩٨٣)، ص ٢٥٦.
١٢ انظر: إحسان، عباس، *تاريخ الأدب الأندلسي* (عصر الطوائف والمرابطين)، ص ٢٣.
١٣ انظر: أحمد بدر، ص ٢٠٠.

وكان لبعض الملوك، مثل ألفونصو السادس، زوجات عدّة، وظلت عادة اتخاذ العشيقات شائعة في وقت كانت فيه دواوين التحقيق توصي بإحراق الرجال الذين يتزوجون أكثر من امرأة واحدة.[١٤] في زمن الأمبراطورية لم يختلف النمط الاجتماعي عن ذلك الذي كان سائداً في قرون سابقة فاستمرت النساء في التزام بيوتهن باستثناء الذهاب إلى الكنيسة أيام الآحاد خلافاً لنساء أوروبا. وعموماً كان معظم منازل الإسبان يخلو من قاعات الطعام الذي كان يُقدم على طاولات صغيرة في قاعات الجلوس، وكان الرجال فقط يجلسون إلى الموائد على مقاعد منخفضة. أما النساء والأطفال فكانوا يتحلّقون حول المائدة وهم جالسون على الأرض أو مستندون إلى الأرائك. ومن الطبيعي أن تكون العادات العربية، أو التي أُدخلت عليها تغيرات طفيفة، قوية التأثير في الجنوب والشرق حيث بقيت أعداد كبيرة من الأندلسيين المواركة (الموريسكيين) حتى بداية القرن السابع عشر. ولا يبدو أن اقتراب إسبانيا من باقي الدول الأوروبية في القرون التي لحقت بسقوط غرناطة أضعف التأثّر بالعادات العربية القديمة. خلال القرن السادس عشر، مثلاً، انتشرت عادة ارتداء الخمار بين القشتاليات، وشاع استعماله إلى الحد الذي اضطر فيليب الثاني إلى تخويل مجلس قشتالة صلاحية التحقيق في الأمر بغية منع انتشاره. في سنة ١٥٩٠ أمر فيليب الثاني بمنع التحجب تحت طائلة عقوبات محددة لكن من دون جدوى. وفي سنة ١٦٣٩ أصدر فيليب الرابع مرسوماً يحظر الخمار تحت طائلة عقوبات أشد لكن من دون تحقيق أي نجاح، وأنشغل كتُاب بوضع أطروحات كثيرة للمساهمة في إزالة هذا التأثير الأندلسي.[١٥]

1 :5 العصر الذهبي في آيبرية

العصر الذهبي الإسباني *El siglo de oro* يعني شيئين مختلفين: أولهما الفترة الممتدة بين عصر كارلوس الخامس وإبرام معاهدة البيرينيه عام ١٦٥٩عندما تصدّت إسبانيا لمحاولات أوروبة الوقوف في وجهها، والثاني العصر الذي برز فيه أهم الروائيين والمسرحيين والرسامين الإسبان مثل سيرفانتس (١٥٤٧-١٦١٦) ولوبي دي فيغا (١٥٦٢-١٦٣٥) وفيلاسكويز (١٥٩٩-١٦٦٠) الذين تأثّر بهم أدباء وفنانون في أوروبة خصوصاً فرنسا. وخلال فترة امتدت ١٦٧ سنة عرفت إسبانيا انتصارات هائلة ونكسات هائلة، فتمكّنت عام ١٤٩٢ من نقض معاهدتها مع الغرناطيين وأخذ المدينة عنوة، واكتشاف العالم الجديد، وطرد اليهود، وتعليم الإسبان قواعد اللغة القشتالية، وإحراز انتصارات عسكرية قوضت أي مقاومة فرنسية أساساً لسيطرة إسبانيا على القارة الأوروبية. وانتقلت تلك الدولة الجديدة من إنجاز إلى آخر فسيطرت في عهد كارلوس الخامس على بقاع لم يسيطر عليها أحد من قبله.

مع ذلك لم يعش كارلوس الخامس عهداً خالياً من النكسات فتورط في حروب مستمرة أنهكت موازنة الامبراطورية، وأخفق في قمع حركة الإصلاح الديني في ألمانيا وهولندا وتصومع في دير يوست ومات عام ١٥٥٨. واعتلى فيليب الثاني عرش الإمبراطورية التي ورثها عن أبيه كارلوس الخامس وحكم ٤٠ سنة وحقق هو الآخر انتصارات عظيمة ومُني بهزائم عظيمة أيضاً إذ دمّر الاقتصاد الأندلسي وقضى على الثورة الأندلسية الكبرى وأوقف انتفاضة الهولنديين موقتاً وحطم الأسطول العثماني عام ١٥٧١، ثم حقق حلماً قشتالياً قديماً عندما ضم البرتغال إلى ممالكه عام ١٥٨٠.

لكن هذا الملك كان أيضاً صاحب إخفاق الارمادا في القضاء على أعدائه الإنكليز والمسؤول عن انتشار البروتستانتية على رغم كل العنف والإمكانات التي وظفها لقمع تلك الحركة الدينية الأصولية. وفي قصر الإسكوريال المنتشر على مساحة ٤٠٠ ألف قدم مربع عاش فيليب الثاني أربعة عشر عاماً من حياته التي مزج فيها

---

١٤ المصدر الذي تقدم، ص ٢٠٧.

١٥ من هذه الأطروحات واحدة اسمها «الخمار: قديمه وجديده على وجوه النساء – حشمته وخطره»، انظر:
Defourneau, p. 159.

الملكية مع الرهبنة، ووجه قسماً كبيراً من العالم بأوامر كان يكتبها على قصاصات من الورق، ثم أبعد صورة العالم الحقيقي من حوله وحلم بعالم واحد يحكمه ملك واحد فيه مذهب واحد هو الكاثوليكية.

الرواية والمسرحية واللوحات الفنية ثقافة – هي ليست حضارة بمفردها. يوجد في آيبرية عصر ذهبي أطول من العصر الاسباني عمراً وأعمق تأثيرا. لا حاجة للاستطالة وإغراق القارىء الكريم بالتفاصيل فلينظر حال غرناطة اليوم وحال قرطبة وبقية مدن الأندلسيين. هذه حضارة وليست مجرد ثقافة. في شبه جزيرة آيبرية افتخر القوط بأصلهم القوطي والعرب بأصلهم العربي ودينهم الاسلامي واعتبروا أنفسهم أعلى مقاما من غيرهم من سكان شبه الجزيرة، لكن الجميع تعايشوا وتزاوجوا وكانوا، على رغم وجود اختلافات مهمة، يشكّلون مجتمعاً واحداً.

نظراً إلى طبيعة تكوين الفاتحين، كان من الطبيعي أن يلجأوا إلى نساء شبه الجزيرة فكن أمهات أجيال جديدة من العامة والحكام على حد سواء. في المرويات ان عبد العزيز بن موسى بن نصير اتخذ من أيلة (أرملة لذريق) زوجة عرفت باسم أم عاصم. وتزوجت حفيدة الملك القوطي غيطشه في الشام من عيسى بن مزاحم وعرفت باسم «سارة القوطية بنت المند». وكان عبد الرحمن الداخل من جارية بربرية تدعى راح، إلا أن سائر أمراء قرطبة كانوا أبناء جاريات كما يدل على ذلك استعراض أسمائهن. هشام الرضا من أم تدعى جمال، والحكم الربضي- (زخرف) وعبد الرحمن الأوسط (حلاوة) ومحمد بن عبد الرحمن (بهير) والأمير المنذر (ايل أو اثل) والأمير عبد الله بن محمد (بهاء أو عشار). الخليفة الناصر لدين الله كان حفيد بشكنسية تدعى در ومثلها زوجة الحكم المستنصر بالله. واتخذ المنصور زوجة بشكنسية سميت عبدة هي ابنة سانشو (شانجة) الثاني ملك نافار (نبارة) وولدت له عبد الرحمن المعروف أيضاً باسم شنجول. وما انطبق على حكام الجنوب في عمومه انطبق على الشمال في بعض الحالات إذ من المعروف أن ألفونصو السادس اتخذ من كنّة المعتمد بن عباد (زائدة أو سيدة) زوجة أو خليلة ولدت له ابنه الوحيد سانشو (شانجة) الذي قتل وهو يحارب الأندلسيين في معركة إقليش. هذا النوع من العلاقات الاجتماعية كان مقبولاً في فترة كثرت فيها الجواري حتى ليقال إن عدد أولاد وبنات الحكم الثاني وصل إلى ٢٠٠، فيبدو أنه أدار الدولة من على سريره في مخادع الحريم. وكان للأمير محمد ١٠٠ ولد في فترة عرفت سيادة العنصر الأندلسي وشيوع الإسلام في معظم المناطق الواقعة إلى الجنوب من نهري دويرة وإبرة بما في ذلك المناطق المحيطة بسرقسطة.

إذا كان اتجاه البعض في فترات سيادة الأندلس «دفع الأموال الطائلة لكي يلفق له النسابون نسباً عربياً»،[١٦] فإنَّ النحو في فترة سيادة قشتالة كان العكس. جاء هذا الإنكار بعد تطورين مهمين ارتبط أحدهما بالآخر: الأول كان ترسيخ سلطة دواوين (محاكم) التحقيق (التفتيش)، والثاني صعود البروتستانتية في النصف الأول من القرن السادس عشر وبروز إسبانيا أهم حامية للكاثوليكية في أوروبة والعالم الجديد.

حيال ارتفاع عدد المتنصرين أو المُنصرين الجدد شعرت الكنيسة بضرورة المحافظة على حقوق المسيحيين القدامى وتفضيلهم في المناصب الحساسة والجيش وغير ذلك من المؤسسات فنشأ ما يعرف باسم «نقاء الدم» وكان سلوكاً اعتمدته الكنيسة ودواوين التحقيق في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السابع عشر. بظهور هذا السلوك، الذي كان بمثابة المبدأ، احتل موضوع إثبات النسب أهمية كبيرة لا سيما للأشخاص الذين وضعتهم دواوين التحقيق تحت المراقبة. وترسّم المبدأ في عدد من القوانين التي صدر أولها بعد مرسوم الملكة إيزابيلا الخاص بتنصير الأندلسيين المواركة سنة ١٥٠٢. وفي سنة ١٥٣٠ أمرت دواوين التحقيق جميع عمالها المعنيين بفتح ملف خاص بكل من يتعامل مع المحاكم فيما يتعلق بميولهم الدينية.

وكان من نتائج صدور قوانين نقاء الدم إثارة القلق بين الناس، وجنوح بعضهم إلى استغلاله للانتقام عن طريق الوشاية، وتحرّك عدد من النسابين ووضعوا كتب الأنساب التي عرفت باسم الكتب الخضراء (أشهرها

١٦ أحمد بدر، ص ١٠٩.

كتاب اسمه *عار إسبانيا* Tizon de Espana الذي وُضع في القرن السادس عشر واحتوى أشجار أسر إسبانية كثيرة) مُؤكّدة أن إثبات نقاء الدم أمر صعب لأن غالبية أهم الأسر الإسبانية تنحدر من أصول لا تخلو من دماء غير قشتالية. وكان لهذه الكتب أوسع الصدى فأقبل الجمهور على قراءتها وأعيد طبع الكتاب المشار إليه مرات عدة وحقق رواجاً كبيراً. وعلى رغم المعارضة التي لقيها مبدأ نقاء الدم إلا أن دواوين التحقيق استمرت في انتهاجه حتى سنة ١٦٥٥، وكان المتّهمون الذين يدلون بمعلومات خاطئة عن أصولهم القديمة يُعاقبون بالغرامات أو العمل الإجباري في القواديس.[١٧] وكان من الطبيعي ان تتوقف هذه المعلومات فيما بعد، إلا أن التزامها خلال تلك الفترة الطويلة ساهم في طمس جانب كبير من انتماءات الأندلسيين القشتاليين.

ولا يُستبعد أن يكون عدد كبير من الأندلسيين المعنيين لجأ إلى إتلاف وثائق كثيرة خاصة بأصولهم كان من الممكن، لولا إتلافها، ان تلقي الضوء على جوانب من طبيعة التركيب السكاني في تلك الفترة التي تميزت بأهميتها لأنها كانت مرحلة حاسمة في طمس معالم أخرى من المعالم الأندلسية في إسبانيا. لكن ما صعب إثباته في كتب النسّابة سهل الاحتفاظ به في الوجوه. ووجدت دواوين التحقيق صعوبة كبيرة في التمييز بين الأندلسي والقشتالي إن تجنب الأندلسي الختان وأتقن اللغة القشتالية. وتكررت تلك الصعوبة حين كان جنود الملك فيليب الثالث يفتّشون عن الأندلسيين المواركة لنفيهم في مطلع القرن السابع عشر. يومها سددت السلطة الإسبانية الطعنة الأخيرة إلى أي آمال علقت باحتمال التوصّل إلى مصالحة من نوع ما تضمن بقاء الأندلسيين المواركة في ديارهم التي لم يعرفوا وآباءهم وأجدادهم على مصر العصور غيرها.

17 Defourneau, pp. 36-39.

٢ طوائف العصر الحديث

1: 2 العصر والآخر

ليست متيقناً تماماً من حدود الكتابة في شأن يعتمد «الاستشعار» لا الرؤية الواضحة، وأقصد بذلك المقابلة بين «طوائف عصر الأندلس» و«طوائف العصر العربي الحديث» لذا سيكون آخر أقسام هذه الورقة . ما يمكن قوله الآن قاله ابن خلدون قبل أكثر من ٦٠٠ عام يجده الراغب في مقدمته. المسألة هنا مسألة طبيعية. كما انهارت الأمبراطورية الآشورية، وهي أول أمبراطورية في التاريخ أصل أهلها من اليمن، ثم الأمبراطورية البابلية، أصل أعمدتها مُر بن أد أو أدد، أي الأموريين (لا العموريين كما في الكتب المُتاحة للطلاب)، ثم الامبراطورية الرومانية وسائر ما تلاها من أمبراطوريات عربية وغير عربية، لم تكن الخلافة القرطبية قادرة على البقاء فوق عمرها الطبيعي.

لو درس الباحث أسباب انهيار معظم الامبراطوريات، فربما استطاع تشبيه الحالة بالقلب والجسم. كلما تضخم الجسم توجب على القلب أن يضخ دماً إضافياً لابقائه حياً. معظم الامبراطوريات لم يمت بالجلطة القاضية، وإنما بتصلب العروق شيئاً فشيئاً. كلما ابتعدت الأطراف عن القلب، كلما قل ضخ الدم الذي يبقيها حية. عندما تصاب الأطراف بالتشنّج يصبح قطعها سهلاً أو تختّ (خت ← ختن) لوحدها، وهذا ما حدث للأمبراطورية الرومانية بفعل تكرر هجمات القبائل البدائية في الشرق والشمال، ثم حدث في الأندلس.

أبو عامر محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) نكب الشمال مملكة بعد مملكة وحرث أرضها كما شاء فرمى بعض ملوكه بناتهم إليه لأن سهامهم لم تكن قادرة على رميه. هذا هو الخبر السعيد. الخبر غير السعيد هو أن القلب القرطبي الذي كان يغذي الامبراطورية وجد نفسه كما لو فجأة في وضع يحتم عليه ضخ الدم إلى أطراف في أقصى الشمال كانت أبعد من قدرته فأصيب بجلطة خفيفة استطاع الحاجب المنصور مداراتها لقدرته الشخصية البارعة على سد الثغور بسرعة. هو مات سنة ١٠٠٢ فخلفه من لم يتصف بالقدرة نفسها فتلاحقت الجلطات سنوات قليلة ثم جاءت الجلطة الكبرى فماتت الخلافة موتاً طبيعياً لا في ساحة الدفاع عن قرطبة أو ساحة الحرب ضد الشمال. الفرق مهم جداً، الخلافة القرطبية لم تسقط بالسيف كما سقطت الامبراطورية الرومانية، ولم تنهزم. الفضل فضل عصر الطوائف.

إذا قُورن حال الامبراطورية الرومانية بالامبراطورية الخلافية فربما وُجد أن عاصمة الخلافة لم تسقط كما روما فور سقوط الامبراطورية فظلت إحدى أهم مدن شبه جزيرة آيبرية إلى أن سقطت بعد أكثر من ٢٣٠ سنة تلت موت المنصور، وظل وسط الأندلس صامداً حتى الثلث الأول من القرن الثالث عشر. الاقتصاد ظل صامداً بل وتوسع في حالات كثيرة. الانتاج الفكر والأدبي والعلمي استبقى إبداعه وتوسّع. أخذنا من ابن منظور في مقدمة هذه الورقة شرح بعض المطالب فله في *لسان العرب* فضل الجمع لا الوضع فهذا اشتغال عبقريين لغويين هما الأزهري (تهذيب اللغة) وابن سيده الأندلسي (١٠٦٦) صاحب «المحكم». ابن حزم من عصر الطوائف السياسي (١٠٦٤)، والجغرافي البكري من عصر الطوائف (١٠٩٤)، وابن زيدون وولادة (١٠٧٠، ١٠٩٥) وابن خفاجة (١١٣٨)، ولسان الدين بن الخطيب (١٣٧٤) وغيرهم مئات.

عسكرياً الحالة الأندلسية باهرة قياساً إلى معظم حالات موت الامبراطوريات لأن الخلافة تقوّضت، لكن الممالك التي قامت على جسدها الهامد بالطبيعة لم تكن ممالك ضعيفة أو متخلفة. إذا شاء الراغب مثالاً فربما قيل إن

الوضع أشبه بشجرة الصبار. الخلافة بمثابة الأرومة الطيبة التي استبقت في جسدها ما يكفي لنمو صبار جديد تغذى بما في الجسد الأم. صبار الطوائف لم يكن أقل حلاوة من صبار الخلافة لكن الحضارة ترخي الأطراف القاسية وتليّن العريكة.

بعض المؤرخين رأى أن العصر الحديث يبدأ باكتشاف سكان أميركا الأصليين الأوروبيين سنة ١٤٩٢، والبعض يرى أن نهاية العصور الوسطى وافقت سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣. إذاً، الأندلس ممثلة بمملكة غرناطة تنتمي إلى العصرين المتوسط والحديث، ويكفي أهلها فخراً أنهم صمدوا عشر سنوات في وجه جيوش إيزابيلا وزوجها فرناندو وكثيرين من ملوك المسيحية بتمويل البابوية من خلال تسويق صكوك الغفران والأتاوات الدينية والأثرياء اليهود.[١٨]

2 :2 العالم والآخر

ثيمة مؤتمر قطر سائرة مستوقفة. سائرة لأن هذه الورقة بدأت بتأصيل التاريخ، وهو واضح في البت أنه الأحداث التي وقعت وراءنا بالمعنى العضوي، لذا ليس هناك تاريخ أمامي إلا في المجاز والسحب. الوضع هنا وضع تاريخ معين لمنطقة معينة صارت تنتمي إلى عالم يُطلّ عليه من عالم آخر هو عالم الآن. الكلمة الثالثة «نعيشه» فهذا يعني أن التاريخ الأندلسي فعل سائر. هل يعني أن تاريخ الأندلس لم ينته؟ إذا لم ينته فما هي دلالات استمراره؟ هل هناك فصل أخير لا نعرفه؟

لنقل معاً، إن شئتم، إن التاريخ لا يموت بموت أهله وإنما يموت المؤرخ. هو تاريخ مضى، إذاً، لكن هل نستطيع الحكم عليه؟ لو سئُل المؤرخ قبل خمسين عاماً، مثالاً، فربما قال إن بعض الحالات التاريخية غير قابلة للتمحيص، خصوصاً في التآليف النقليّة لأن جديدها يعتمد قديمها وقديمها غير واضح في الحالات جلّها . قراءة مئات الألوف من الصلصاليات في بلاد الرافدين وسورية وفلسطين، وتطوير التزمين الكربوني غيّرا الوضع. تأصيل العاربة، وبالتالي العربية لأنها آخر بنات الأم اللغوية الأولى وأقربهن إليها صلة بسبب الانعزال النسبي للناطقين بالعربية في الجزيرة، سيمكّن الباحثين العرب من إعادة بناء تاريخ الانسان الحديث، أي أنتِ وأنتَ وهذا الكاتب، وسيكون حاسماً في كشف أصول الأديان لأنها تعتمد الكلام. الناس يكذبون لكن الكلام لا يكذب، حتى كلمة «كذب» لا تكذب لأن هذه هي دلالتها اللفظية والمعانيّة.

المشكلة التي تواجه المؤرخ أن المنتصر يكتب التاريخ في صيغة ويكتبها المهزوم بصيغة أخرى فتختلط الحقائق بالعواطف والصحيح بالخيالي. العرب متهمون بأنه يعيشون في الماضي. حالة البقاء التاريخية في الماضي معروفة، فهي حالة أشبه بالمراوحة في الوقت في انتظار شيء. شخصياً لا أرى أي مشكلة في البقاء في الماضي إذا كان الوضع وضع انتظار لا وضع استيطان. الانسان يهرب من واقعه الرديء إلى حلم النوم، ثم يهرب إلى الواقع من كابوس الحلم.

إذا رغب المرء أن يعيش تاريخاً مثل تاريخ الأندلس فربما وجب عليه أن يعرف ما هو تاريخ الأندلس بالضبط.

---

١٨ نهب أموال اليهود شائع في أوروبا، مثلاً، في عام ١٢٥٤عاد الملك الفرنسي لوي التاسع المعروف أيضاً بـ«القديس» من حملة فاشلة على مصر انتهت بأسره في معركة المنصورة واستفدائه بمبلغ هائل فألغى ديون اليهود كلها وطرد مجموعات كبيرة منهم. في العام نفسه حذا خايمي الأول ملك أرغون حذو جاره الفرنسي فألغى ديون اليهود التي كانت تشكّل القسم الأعظم من القروض التي أثقل خزانته بها. وفي عام ١٣٠٦ شارف الملك الفرنسي فيليب الرابع على الإفلاس فاعتقل اليهود وصادر أملاكهم وطردهم من البلاد قبل أن يلتفت إلى فرسان الهيكل بعد ذلك بسنة. ونجد مثالاً أحدث من الأمثلة الثلاثة السابقة في إيزابيلا التي طردت اليهود من قشتالة عام ١٤٩٢ وتخلّصت من القروض التي قدّمها اليهود واليهود المتنصّرون للانفاق على حرب غرناطة، ومن أهم هؤلاء الممول الملكي أبراهام سنيور Abraham Senior الذي كان روتشيلد عصره. انظر: *الأمة الأندلسية الشهيدة*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت)، ٢٠٠٠، ص ٢٢٩.

إذا لم يستطع كشفه في حطام تآليف المؤرخين الاسبان، فربما شاء أن يبحث في محيطه عن النتاج الأندلسي. مثلاً، معظم العرب يعتقدون أن أرقامهم هندية لأن اليعقوبي قال لهم إنها هندية. الهنود في حيرة لأنهم لا يجدون في تاريخهم ما يؤكد أنهم ابتكروا هذه الأرقام. أهم برهان على هندية الأرقام العربية هم المؤلفون العرب، فهذا مثال على أن علم الأمة من علم علمائها وجهلها من جهل علمائها. أرقام العرب المشرقيين أرقام مشرقيّة أصلها من عصر الحجر لأنها تشكيلات باليد وأصابعها، أي أن العربي اليوم والأمس لا يكتب رمزاً للرقم وإنما يرسم صورة التشكيل باليد أو الأصابع. إذا قال العرب إن أرقامهم المشرقية هندية فمن يكتب بالأرقام الغربية، معظم العالم، يقول إن أصل أرقامه هندية أيضاً. إذا اطلع الباحث على مخطوطة *البيان والتذكار في صناعة علم الحساب بالغبار* للحصّار سيجد فيها مجموعتين للأرقام المشرقية والغربية. الحصار من أبناء القرن الميلادي الثاني عشر، وهو من أبناء الأندلس.[١٩]

من الواضح، إذاً، أن أوروبا أخذت أرقامها الغربية إما من الحصار أو من حسّاب آخر. لكن لماذا عدّل الحصّار، أو غيره، الأرقام المشرقية إلى غربية؟ لأن بعض أبناء الأندلس كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين، أي بلغات أوروبا. إذا قرأ شباب العرب وشاباتهم كتاب روبير بريفو «صنع الانسانية» سيعرفن فضل الأندلسيين على النهضة الأوروبية.[٢٠] بريفو ليس الوحيد. لنيتشه سمعة سيئة ربما لأن بعض اليهود اعتبروه عدوهم، لكن رأيه واضح في أن ضوء النهضة الأوروبية شع، مثل شمس جديدة، من المغرب، أي من الأندلس.

تاريخ الأندلس التاريخية يُقرأ في الكتب التي سيقت في هذه الورقة، وغيرها. تاريخ الأندلس الذي نعيشه ليس في الكتب تلك. إنه في الدراسات الموريسكية. أحياناً أعتقد أن العقل العربي يعمل بالجملة لا بالمفرق، ربما لأنَّ العرب عرق واحد لهم تاريخ ضارب في عصر الحجر فهو يشبه جبل الثلج، يُرى رأسه لكن معظمه تحت الماء. معارف كثيرة في الأديان والأرقام والكلام أجدها في العقل العربي الباطن. معارف جنينية؟ لا أعرف، لكنها موجودة. في السنة التي نشرت فيها كتاب «الأندلسيون المواركة» نشر أستاذنا عبد الجليل التميمي ترجمة كتاب كارداياك *الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون*.

الدراسات الموريسكية بلا نهاية لأنها تاريخية إنسانية سائرة، أي مثل ثيمة هذا المؤتمر. لماذا هي سائرة؟ الجواب في السؤال: ما الذي حدث للأندلسيين بالضبط؟ عشرات الألوف قتلوا، وعشرات ألوف أخرى ماتوا غرقاً في البحار، لكن باقي الأندلسيين نحن. وجودهم قوي ومعروف في البلاد المغاربية لكن أندلسيين كثيرين انتقلوا إلى أراضي الامبراطورية العثمانية ومنها إلى بلاد عربية كثيرة.

خاطب أمير الدراسات الموريسيكية العربية عبد الجليل التميمي سفير إسبانيا إلى تونس في المؤتمر العاشر للدراسات الموريسيكية-الأندلسية في أيار (مايو) ٢٠٠١ شارك فيه هذا المؤرخ بورقة مُلحقة بهذه الورقة بالقول: «توقف الباحثون عند قرارات السلطات السياسية الاسبانية بخصوص لغة الموريسكيين ومحاولاتهم المستميتة المحافظة على لغتهم العربية في حين تغلبت الظروف على البعض الآخر وتم استعمال اللغة القشتالية. في جلسة خُصصت لحوار مفتوح حول آليات الشراكة العلمية المستقبلية بين الباحثين، اتسمت بتنوع المسائل والاشكاليات المطروحة ومدى الاهتمام الجديد الذي أظهره الباحثون للوجود الموريسكي في أميركا اللاتينية وهو يشكل موضوعاً في غاية الأهمية، وبعد مداولات ثرية ومطولة، قرر المشاركون تنظيم المؤتمر الحادي عشر في أوائل شهر

١٩ بشتاوي، عادل سعيد، *الأسس الطبيعية لحضارة العرب* (المجلد الأول من كتاب الأصول)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٩، ص ٣٣٣.

٢٠ رابط تنزيل الكتاب:
https://ia601404.us.archive.org/8/items/makingofhumanity00brifrich/makingofhumanity00brifrich.pdf

أيار (مايو) ٢٠٠٣ في شأن إطار الأبحاث: الحضور الموريسكي والحياة اليومية في البحر الأبيض المتوسط وأمريكا الشمالية.»

كثيرون في اميركا اللاتينية لا يأكلون لحم الخنزير لكنهم لا يبدو أنهم يعرفون لماذا. هندسة البيوت الأندلسية في المكسيك، بعض وجبات الأندلس في الهند، الفلامنغو ربما كانت نوعاً مطوّراً من رقصات الأندلسيين، بعض الغجر ربما كانوا من الأندلسيين الذين اختلطوا بغجر يبدو أن أصلهم من مكان ما في الهند للنجاة بأنفسهم من عمال محاكم التحقيق. إذا لم تكن المسرحية الأولى في إسبانيا فربما كانت من أول مسرحيات الأندلسيين الموريسكيين: هي عن النبي محمد (ص).

إذا أريد للتاريخ الأندلسي أن يكون تاريخاً نعيشه فربما كان علينا أنسنة التاريخ الأندلسي كي يكون حياتاً لا ورقا. أهل الأندلس ليسوا مستحاثات بشرية. دمهم ودمنا واحد من الأجداد أنفسهم، قل أو كثر، بعُد أو قرب. فليُقرأ التاريخ الأندلسي إذن، وليتابع الباحثون دراساتهم الأندلسية الموريسكية لأنسنة الأندلسيين، لكن لا تقرأوا تاريخ الأندلس لمعرفة المجد الذي كان. تصلني أحياناً تعليقات من قراء تتوعد الاسبان أن العرب قادمون لاستعادتها بعد تحرير فلسطين، ومثلها تعليقات كثيرة مشابهة أقرأها في مواقع في الانترنت.

هذا ليس الهدف من أنسنة تاريخ الأندلسيين في كتابين لي وعشرات الدراسات والمقالات ثم متابعة البحث في تركة الأندلسيين الموريسكيين الحضارية. الملايين من أهل إسبانيا بنات وأبناء الفاتحين، أي أخواتنا وإخوتنا. إسبانيا في أيديهم اليوم بخير، غرناطة بخير وقرطبة بخير وبلنسية بخير ومرسية بخير وكذا مدن الأندلسيين جميعاً. مهما كانت الصورة متقنة فإنها تبقى صورة أصل لا يمكن تثنيته.

يوجد خيار أفضل متاح للشابات والشباب: اصنعوا أندلس أخرى ربما ستكون أكثر مجداً وإنسانية وإخاء بين أصحاب الأديان وأصحاب الأعراق. الأندلس بصْمَتْ ضمير التاريخ والانسانية برسائل عدّة ربما كانت هذه أهمها في المطلق: «إذا كنتم تحبون أندلس المغرب فاصنعوا في المشرق أندلس أخرى». إذا كنتم تفتخرون بعروبتكم وإسلامكم في زمن الأمن واللاخوف، فالأندلسيون افتخروا بعروبتهم وإسلامهم في زمن القلق الأدهى والخوف الأعظم.

خلال الشهور القليلة التي سبقت بدء التغريب كان المارّة في أحياء الأندلسيين في المدن الأرغونية والقشتالية وفي المزارع أو المصانع التي يعملون فيها يسمعون أغنية حزينة بالقشتالية لم نستطع الإهتداء إلى مؤلفها، ويمكن ترجمتها كالآتي:

يقولون إنَّ علينا الرحيل،
تباعاً إلى أرضنا الطيّبة،
هناك الجبال وراء الجبال،
من التبر والفضة الخالصة،
لقد ذلّ من يبتغي طردنا،
لنذهب معاً أخوتي،
لنذهب معاً كلّنا،
إلى الخير والوفر يا أخوتي،

إلى أمّة من العُربْ مثلنا. [٢١]

وتوضح هذه الأغنية الموجهة في شكل رسالة من الأندلسيين في أرغون إلى إخوانهم في قشتالة أن الأندلسيين كانوا يعرفون أن الحكومة تخطط لطردهم من بلادهم لكنهم لم يعرفوا تماماً تفاصيل الخطة. عندما نزل الجنود في بلنسية أصاب معظم الأندلسيين الفزع وظنّوا أنهم جاؤوا لإفنائهم. وسيحدث هذا الإفناء لعدد كبير منهم في ما بعد لكن الدفعات الأولى التي غادرت الأندلس لم تعرف هذا إلا عندما كانت في المغرب، وكان حظها هناك، على رغم تقلّبه، أفضل من حظوظ الآخرين. ولا شك في أن معظم الأندلسيين واجه في تلك الفترة وضعاً نفسانياً صعباً. ولا بدّ أن يكون كل واحد منهم فكّر بما يعترضه في حياته في إسبانيا وفكّر بالمصاعب التي يمكن ان تعترضه في ما وراءها من بلاد الخارج، ودخل من حيرة إلى حيرة ولم يكن التوصل إلى قرار واضح سهلاً. إلا أن معظم الأندلسيين استنتجوا في النهاية أنهم وصلوا مع الإسبان إلى طريق مسدود ولم يعد التنازل ممكناً.

ويبدو أن السلطات فوجئت بتوصّل معظم الأندلسيين إلى هذه القناعة في وقت مبكر، فتجددت مساعي بعض رجالات الكنيسة والنبلاء لاقناعهم بالبقاء وقبول التعميد. وكان بعض النبلاء يقولون للأندلسيين إن كل ما عليهم فعله هو الذهاب إلى الكنيسة ثم العودة إلى بيوتهم وفعل ما يريدونه بعد ذلك. غير أن هذا الحل لم يكن مقبولاً، وعرضوا بدلاً منه استمرارهم في تشغيل المصانع وزراعة الحقول إذا ضمنت لهم الحكومة ممارسة عاداتهم وشعائرهم الدينية الاسلامية من دون أي مضايقات. وتأخرت عملية بدء تغريب الأندلسيين فيما حاولت مجموعة من النبلاء على رأسها دوق غندة Gandia إقناع الملك فيليب الثالث بإعادة النظر في قراره أو تأجيله لكن الطلب رُفض ولم يعد هناك مناص من الرحيل.

ويروي القس داميانو فونسيكا موقف الأندلسيين خلال اجتماع لهم آنذاك بالقول: «كان اجتماعاً عاماً للفقهاء والرؤساء، ونُصح الموريسكيون بعدم القيام بانتفاضة مسلحة. وأقر الإجتماع العام ذاك أن الطرد سيكون شاملاً، ورفضوا حتى الإبقاء على الستة في المئة منهم ليلقّنوا المسيحيين فنون الزراعة». [٢٢] ووصف الأب فونسيكا، الذي كان شاهد عيان لخروج الأندلسيين، ما حدث بعدها فيقول: «لقد رفضوا ليس فقط العمل وجمع العنب وقطع قصب السكّر بل اعترفوا صراحة أنهم جميعاً مسلمون. وأكد أحدهم أن كل الأندلسيين في مملكة بلنسية عرب أيضاً شأنهم في ذلك شأن عرب الجزائر... وكانوا يعترفون، إذا دُفعوا إلى ذلك، بأنهم عرب، وأنهم بقوا عرباً دائماً، وأنهم مستعدون للدفاع عن دينهم ومحاججتنا به». [٢٣]

وعندما تجاوز الأندلسيون ترددهم ومخاوفهم الأوليّة أقبل قسم مهم منهم على الاستعداد للرحيل برغبة، وحلّ محل الشعور بالقلق شعور معين بالارتياح إذ سيكون في مقدورهم أن يعودوا عرباً ومسلمين في العلن وعندما يشاؤون، وسيكون في استطاعتهم ارتداء الملابس التي يفضلونها، والاغتسال عندما يشعرون برغبة في الاغتسال، ومراقبة أولادهم يكبرون معهم بلا خوف من أن تأمر محاكم التحقيق بانتزاعهم منهم لتربيتهم على المسيحية، والتخاطب بالعربية بلا خوف من حرقهم أو تعذيبهم في أقبية محاكم التحقيق أو الشغل في القواديس.

وكتب دي ربيره الى الملك فيليب الثالث في الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٦٠٩ يقول: «تجري عملية التهجير في صورة ممتازة فالظروف مواتية بما يشبه المعجزة لأن الموريسكيين يظهرون فرحتهم

---

٢١ كارديك، لوي، *الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون*، ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي، ص ٨٣ (منقولة من وثائق محاكم التحقيق).

22Fonseca, Padre Damiano de. Relacion de lo que paso en la expulsion de los Moriscos del reyno de Valencia, (Roma 1612) p 89.

٢٣ أعلاه، ص ٩٧.

وسرورهم بالهجرة، والنبلاء برهنوا كذلك أنهم مغتبطون، والجميع اقتنع أن قراراتكم هي الأصوب».[٢٤] ويكرر دي ربيره قولاً مشابهاً في رسالة اخرى عندما يقول: «علينا ان نبتهج لان الموريسكيين جميعاً لا يريدون البقاء».[٢٥] ويسرد المأمور القضائي كالوسا Callosa في رسالة إلى فيليب الثالث في وقت لاحق حالة مثيرة للدهشة تخص أندلسياً كان منعزلاً عن باقي الأندلسيين فلم يشاركهم أفراحهم ولا أتراحهم. وكان هذا الأندلسي غنيّاً جداً ويملك مجموعة حواكير مزروعة بالقنب والزيتون وبيتاً كبيراً. ونظراً إلى سلوكه الجيد طوال ١٢ عاماً أبلغه مسؤولو التغريب أنه يستطيع البقاء لكنه رفض العرض وانضّم إلى المُغرّبين وتخلى عن كل ممتلكاته التي قُدرت قيمتها بنحو أربعة آلاف بيزته ذهبية».[٢٦]

الأندلسيون حتى في قمة اليأس احتكموا إلى الأمل ووجدوا سبيلاً إلى النكتة، وهذه أمثلة:

١- كان الأندلسيون يتفادون تعميد موالديهم الجدد بمولود سبق تعميده، فهو طفل جاهز للتعميد المتكرر عندما يستقبلون مولوداً جديداً لكن القسيس لا يستطيع التأكد أنه عمّد الطفل كذا مرة في الماضي (كارداياك، ص ٣٦).

٢- كتب أحد القساوسة يشتكي: « (الأندلسيون) لا يأخذون الماء المقدس إذا دخلوا الكنيسة، ولا يرسمون علامة الصليب. لقد كانوا مثل الشيطان وأشد أعداء المسيح... وكنا فرضنا عليهم الخوف، الا أننا نلاحظ قلة إيمانهم لحظة رفع القربان المقدس، إذ يقطّبون جباههم وينزلون رؤوسهم ويحولون وجوههم بعيداً، ويدفعون أولادهم الى البكاء ليزيدوا القاعة ضوضاء. بل هناك حادث خارق للعادة تمثّل في حمل أحدهم المسبحة وهو في الكنيسة!».[٢٧]

٣- أطرف ما قرأت قصة لا أذكر مرجعها عن كردينال سمع أن الأندلسيين كانوا يتقاطرون على قسيس للاعتراف بالجملة، فراح إلى القسيس يشكره على جهده في شد كل هؤلاء الأندلسيين إلى الكنيسة للاعتراف لكن القسيس لم يسمعه جيداً، وتبيّن أنه قريب من الطرش، فيبدو أن الأندلسيين كانوا يذهبون إليه للتندر.

---

24 Archivo de las corona de Aragón, Consejo de Aragón, Valencia, 607, folio 26, 1609, 23 de Diciembre.

٢٥ *موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فيليب الثالث* (١٥٩٨-١٦٢١)، ص ٢٨.

26 *Archivo de las corona de Aragón, Consejo de Aragón, Valencia*, 607, folio 7, 1611, Octobre.

27 *Guadalajara, Marcos De & Xavier. Memorable expulsion y justiismo destierro de los Moriscos de Espana*, Pamplona, Nicolas de Assiayn, 1613, folio 159.

حدود ممالك أو دويلات الطوائف بعد انهيار الخلافة. جميع الحدود تقريبية. المصدر ويكيبيديا والتعريب لصاحب الورقة.

٣ الاستقراب والمقاربة: قراءة تاريخية

1:3 حضور التاريخ

خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين سجل عدد سكان الممالك المسيحية في شمال الأندلس ارتفاعاً كبيراً نتيجة ثلاثة أسباب رئيسة: ١) تدفق المهاجرين الأوروبيين، خصوصاً الفرنسيين، لاستيطان المناطق الجديدة التي احتلتها الممالك الشمالية؛ ٢) نزوح جماعات من النصارى المستعربين الذين كانوا يقيمون في الجنوب ثم فضّلوا الانتقال إلى الشمال لأسباب كثيرة؛ ٣) ارتفاع نسبة التزايد السكاني في الشمال بعد مرحلة من الاستقرار النسبي التي أعقبت عجز قرطبة عن التصدي للشمال لانشغالها بالفتن الداخلية في عهدي الولاية والأمارة.

ويمكن القول إن التحرك الشمالي نحو الجنوب في مراحله الأولى كان في أحد مظاهره المهمة استجابة لحاجة ملحة اقتضت مزيداً من الاراضي لاستيعاب العدد المتزايد من السكان، لكنه أصبح مع الزمن سياسة مرسومة سارع ملوك الشمال إلى تطبيقها كلما ضعفت مقاومة الأندلسيين خصوصاً عند نشوب الحروب الأهلية أو شيوع الفتن. في الحالات التاريخية التي أمكن التحقق منها يتضح للباحث أن معظم ملوك الشمال انتهج استراتيجية واضحة ترمي إلى إدامة نفوذهم في الجنوب الأندلسي من خلال توطين مجموعات مختارة من المسيحيين الموثوق بولائهم لملوكهم وربط استمرار هذا الوجود بالمصالح الاقتصادية. لكن من الواضح في الوقت نفسه أن تحقيق هذا الهدف تطلّب الاستيلاء على الأرض الأندلسية أولاً وتطلّب هذا بدوره بناء القدرات العسكرية المناسبة لوقعنة الاستراتيجية، لذا يُلاحظ في سلوكيات العصر العسكرية المسارعة إلى إسكان المناطق الأندلسية المحتلة بمواطني الشمال وتوفير التدريب العسكري الملائم والأسلحة المناسبة لنقل مهمة الدفاع عن الأراضي الجديدة إلى مستوطنيها وتمكين الجيوش من متابعة التوغّل في الجنوب.

وبحلول بداية العقد الثاني من القرن العاشر الميلادي كان ملوك أستورياس بسطوا سلطانهم على خُمس آيبرية فحققوا مطالب السكان الذين كانوا ينظرون إلى الملوك في تلك الحقبة من الزمن على أنهم مفتاح الخير والثراء. إلا أن هذا لا يستثني وجود عوامل أخرى ساهمت في الاندفاع نحو الجنوب مثل الجفاف أو المجاعة أو السعي إلى تحقيق انتصار إضافي لنصرة الدين أو إبعاد الأنظار عن المشاكل الداخلية وغيرها من الأسباب التي كمنت دائماً وراء نشوب الحروب في العالم، وفي صورة لا تختلف كثيراً عما يحدث اليوم. ومع ذلك يمكن التفريق بين الاستراتيجة والتطبيق لأن الهدف من الاستراتيجية تحقيق جملة من الأهداف. إذا لم تتحقق هذه الأهداف فهذا يعني وجود خلل في الاستراتيجية.

ويمكن تحديد عاملين أساسيين لا في إفشال استراتيجة التوغل التدريجي في الجنوب بل في إضعافها. الأول اقتصادي ذلك أن انتقال الشماليين إلى أراضي الجنوب تسبب في إضعاف اقتصاد المناطق المحتلة أو في انهياره تماماً لأن الاقتصاد يرتبط بالناس فإذا نزحوا انهار الاقتصاد بنزوحهم. المستوطنون الجدد لم يتمكنوا من إعمار الاقتصاد لضعف مهاراتهم الزراعية والتجارية والصناعية. ولهذا الضعف أسباب تاريخية ذلك أن المناطق الشمالية التي قامت فيها الممالك الشمالية كثيرها جبلي اتصفت في معظم تاريخها بقلة خصوبتها وفقر سكانها مما يفسر سبب تجنّب معظم الغزاة الذين دخلوا آيبرية هذه التخوم منذ أقدم العصور.

وعكس اقتصاد الممالك الشمالية الأولى أوضاعها الجغرافية والمناخية فتألّفت عناصره الأساسية من تربية الماشية والاتجار بالصوف الخام والتجارة المحدودة وبيع العبيد الصقالبة. وعندما بدأ الشماليون النزول إلى سهول نهر دويرة وجدوا الأراضي الأندلسية الخصبة لكن قسماً كبيراً منهم كان يجهل فنون الزراعة أو ينأى بنفسه عن مزاولة هذه الحرفة ويفضل خدمة الملوك أو الكنيسة أو الاقطاعيين الكبار أو الانخراط في الجيوش.

وللكونت الايطالي ريموندو (١٦٠٨-١٦٨٠)، وكان أيضاً جنرالاً في الجيش النمسوي، مقولة مشهورة في طبيعة الحروب: «أهم ضرورات شن الحروب المال ثم المال ثم المال». ينطبق القول على حال الحروب اليوم كما انطبق على معظم حالات الحروب في الماضي، ولم تكن الأندلس مختلفة عن غيرها. في غياب اقتصاد قوي قادر على تمويل الحروب، لم تتمكن الاستراتيجية الشمالية من تحقيق أهدافها لأن المستوطنين لم يتمكنوا من إعادة إعمار الاقتصاد أو تنشيط الزراعة والتجارة. في الوقت نفسه تطلب الاقتراب من التجمعات السكانية الأندلسية الضخمة في الوديان الزراعية حشد جيوش قادرة على صد أي هجوم أندلسي معاكس وبالتالي توفير المال الضروري للانفاق على الجيوش.

وتغير الوضع عندما صارت الجيوش على مشارف وديان النهر الكبير حيث الثروة الأندلسية الوافرة والتجمعات السكانية الأندلسية الكبيرة خلال مرحلة طويلة من الهبوط العسكري في عصر الطوائف. في البداية لم يكن توفير أموال الجزية صعباً لوجود اقتصاد قوي، إلا أن الجزية التي ضمنت استمرار سلام هش أرست استراتيجية تسببت في مرحلة لاحقة في انهيار وسط الأندلس. ذلك أن خزائن ملوك الطوائف صارت بمثابة بنوك لملوك الشمال يتلقّون منها التحويل بعد الآخر في أوقات معلومة. إذا تأخر التحويل لأي سبب كان ملوك الشمال يلوّحون بسيوفهم فيأتيهم متعجلاً حتى باتت الجزية أكبر مصدر دخل للممالك الشمالية.

وماذا كان ملوك الشمال يفعلون بكل ذلك المال؟

كانوا ينفقون جزءاً منه على بناء القصور وتجميلها بأيد أندلسية في حالات كثيرة، وكان جزء منه يتسرب إلى العامة إلا أن جزءاً كبيراً كان يُصرف على الجيش والمرتزقة، أي في الاستثمار في أدوات الحصول على مزيد من الجزية.

ملوك الطوائف في معظم سنوات القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانوا يرشون الشمال خوفاً على عروشهم، إلا أنهم كانوا في الوقت نفسه يغذّون الحرب ضدهم صاغرين. إذا أخذ الباحث في الاعتبار حجم المبالغ الهائلة التي دفعها ملوك الطوائف لقشتالة فربما أمكن القول إن العصور الوسطى لم تعرف إلا في حالات قليلة جداً وضعاً يماثل وضع الملوك الأندلسيين الذين وجدوا أنفسهم يموّلون الحرب ضد أنفسهم بأموال الشعوب التي حكموها.

وخلال القرنين المذكورين والعقد الأول من القرن الثالث عشر دخل الشمال والجنوب في الأندلس في حلقة عجيبة فيها صار التهديد بالحرب ضد الجنوب يغذّي الخزائن في الشمال ثم تعود الخزائن فتُغذي التهديد بالحرب. كلما ازدادت نفقات التهديد ازدادت الجزية، وهكذا تسارع انتقال الثروة من الجنوب إلى الشمال وعجز ملوك الطوائف عن دفع المستحقات وبدأ غش العملة والتلاعب بأوزانها.[٢٨]

---

٢٨ عالج احمد بن عبود في كتابه *التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف* أحد جوانب هذا الشأن فعرض أن نقطة الضعف التي اتسم بها الاقتصاد الاشبيلي في عهد بني عباد اصطباغه بصيغة من الاستقرار المصطنع إذ كانت إشبيلية، مثلها مثل جل الدول الطائفية الأخرى، تشتري سلمها من ألفونصو (السادس) بدفع جزية سنوية له، وكان ضرر هذه الجزية مزدوجاً، فمن جهة أولى كانت دائمة، ومن جهة ثانية كان مال الجزية يؤدى عادة حسب شروط ألفونصو (في *نفح الطيب*، ج ١، ص ٧٦، شكوى الأمير عبد الله بن بلقين من الورطة التي وقع فيها ملوك الطوائف لأن ألفونصو السادس فرض عليهم أداء أموال الجزية السنوية، وذكر صاحب *نفح الطيب* – ج ١، ص ٧٥– أن المبلغ الذي طلبه ألفونصو من الأمير عبد الله بن بلقين كان عشرين ألف مثقال)، وكانت نتائج ثقل هذه الضريبة على الاقتصاد الاشبيلي عدّة مما تسبب في

وماذا يحدث عندما يتوقف البنك عن إرسال التحويلات؟

يعلن متلقي التحويلات الإفلاس أو يفتّش عن مصدر آخر. أحياناً يحدث شيء ثالث مختلف تماماً فيذهب الشخص الذي كان يتلقى التحويلات إلى البنك بنفسه ويستولي عليه كاملاً غير منقوص. هذا ما فعله ألفونصو السادس عندما ذهب بنفسه إلى واحدة من أغنى مدن الأندلس (طليطلة) وأخذها عنوة، وحلتّ محل سياسة استدرار الثروة من مصادر الثروة سياسة جديدة قامت على الاستيلاء على مصادر الثروة نفسها. في حالات أخرى كانت حاجة ملوك الشمال إلى الدعم العسكري أهم من الحاجة للمال فوجد بعض الملوك أنفسهم في وضع اضطروا فيه إلى التعاون مع بعض ملوك الشمال، أو فتحوا أرضهم لعبور الجيوش الشمالية في حين كان هم ملوك الطوائف إدامة حكمهم لا حكم غيرهم من الملوك. ولا نعرف في التاريخ الأندلس حالات دائمة اتفقت فيها كلمة ملوك الطوائف على وقف تقدم الشماليين فتُرك كل ملك لمصيره. الحالة الوحيدة تقريباً التي اجتمعت فيها كلمة بعض ملوك الطوائف هي الحالة التي تسببت في إزالة الممالك، أي استدعاء المرابطين ثم الموحدين.

مع ذلك ربما قيل إن ممالك الطوائف حالة سياسية لم تفرض نفسها على الواقع الأندلس وإنما كانت نتيجة متوقعة فرضها واقع انهيار الخلافة الذي وضع الأمة الأندلسية كلها أمام خيارات محدودة جداً. ذلك أن عبد الرحمن المعروف بـ«الثالث» بدأ حكمه سنة ٩٢٩ (٣١٦) بإنهاء عصر الأمارة وبدء عصر الخلافة، وطالت ولايته نحو نصف قرن حتى سنة ٩٦١ (٣٥٠). تبعه ابنه الحكم الثاني المستنصر بالله (٩٦١-٩٧٦/ ٣٥٠-٣٦٦) فحكم نحو ١٦ سنة، ثم مات وترك وراءه ابنه هشام الثاني (المؤيد بالله) وكان يومها في الحادية عشرة. وكان الصبي هشام الخليفة لكنه لم يكن الحاكم. أما الحاكم الذي لم يكن الخليفة فهو أبو عامر محمد بن عبدالله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، أو اختصاراً محمد بن أبي عامر الملقب بـ«الحاجب المنصور».

في عهد الحاجب لم يعرف الشماليون طعم الانتصار إذ سيّر جيوشاً ضمّت أعدادا كبيرة من المرتزقة، من بينهم الصقالبة، فاجتاح قشتالة عام ٩٨١ (٣٧٠) وأخضع سيمانقة وسمورة وهزم اتحاد جيوش ليون وقشتالة ونافار في الروطة (روطة اليهود). وإزاء هذا الوضع فقد الشماليون أي أمل في الإنتصار فراح الملوك يلاطفونه وأعطاه سانشو الثاني ملك نافار ابنته. وعاد المنصور عام ٩٩٧ (٣٨٧) فجال في ممالك الشمال وفتح سنتياغو (شنت ياقب) ثم اخضع بعد سنتين بمبلونة وانتصر في كل المعارك التي خاضها إلى أن توفى عام ١٠٠٢ (٣٩٢) في إحدى غزواته ودفن في مدينة سالم. وجاء بعد المنصور ابنه المظفر ومات بعد ست سنوات ثم لحقه أخوه شنجول. وتعثرت أحوال الأندلس بعد انقراض الدولة العامرية ويئس الناس من الخلاص فقاموا يديرون أمورهم بأنفسهم وألغوا الخلافة، وولوا أمرهم شيخ الجماعة الوزير أبي الحزم بن جهور في منتصف ذي الحجة ٤٢٢ (١٠٣١)، وانضمت إلى هذا الترتيب مدن عدة منها جيان وبياسة ومناطق في جبل الشارات جنوب الأندلس، ثم سلك بعض من تولوا الحكم سلوك ملوك الطوائف وما لبث أمرهم أن انتهى.

ولمؤرخي الأندلس تصانيف مختلفة في هيكلة ممالك الطوائف أو أماراتها المدائنية إلا أن قيامها يُحدد عادة بسنة

إضعافه تدريجاً فأصبح في إمكان جيش ألفونصو إلحاق مزيد من الضرر بإشبيلية.

وفي النص إشارة إلى مفاوضات بين وزير المعتمد، ابن عمار، وألفونصو وعد خلالها ألفونصو بخمسين ألف مثقال في مقابل مساعدته العسكرية ضد الأمير عبد الله حاكم غرناطة، وإشارة أخرى إلى أن الجزية السنوية اعتباراً من سنة ١٠٨٥ أصبحت عبئاً ثقيلاً على الاقتصاد الاشبيلي فلجأ المعتمد إلى مال مغشوش عرضه على مبعوث ألفونصو المكلف جباية الجزية، وهو اليهودي ابن شاليب، الذي رفض أخذه فقتله المعتمد وكان هذا بداية المواجهة الحربية مع ألفونصو كما بين ذلك صاحب *الحلل الموشية*، ص ٢٩.

الملاحظات هذه من الصفحات ١٧٠ - ١٧٣، تطوان (المغرب) ١٩٨٣.

ممالك الطوائف في عصرها الأول (القرن الحادى عشر الميلادى)

المملكة/ الدويلة	عصر ها	آلت إلى
بنو رزين/Albarracín	1011–1104	المرابطين
الجزائر (الخضراء) /Algeciras	1035–1058	إشبيلية
المرية/Almería	1011–1091	المرابطين
ألفنت/Alpuente	1009–1106	المرابطين
أركوش/Arcos	1011–1068	إشبيلية
بطليوس/Badajoz	1009–1094	المرابطين
قرمونة/Carmona	1013–1091	المرابطين
سبتة/Ceuta	1061–1084	المرابطين
قرطبة/Córdoba	1031–1091	إشبيلية
دانية (دانة)/Denia	1010/1012–1076	سرقسطة
غرناطة/Granada	1013–1090	المرابطين
يرقة/Jérica	فى القرن نفسه	طليطلة
لشبونة– أشبونة/Lisbon	?–1022	بطليوس
لورقة/Lorca	1051–1091	المرابطين
مالقا/Málaga	1026–1057/1058	غرناطة ثم المرابطين (١٠٧٣–١٠٩٠)
ميورقة/Majorca	1018–1203	المرابطين
مرطول/Mértola	1033–1091	المرابطين
مولينا/Molina	?–1100	أرغون
مرور/Morón	1013–1066	إشبيلية
مرسية/Murcia	1011/1012–1065	بلنسية
مربيط وشقونت/Murviedro and Sagunto	1086–1092	المرابطين
نبلة/Niebla	1023/1024–1091	إشبيلية
رندة/Ronda	1039/1040–1065	إشبيلية
روطة/Rueda	1118–1130	أرغون
شلطيش وولبة/Saltés & Huelva	1012/1013–1051/1053	إشبيلية
شنتمرية الغرب/Santa María de Algarve	1018–1051	إشبيلية
شقرب/Segorbe	1065–1075	المرابطين
إشبيلية/Seville	1023–1091	المرابطين
شلب/Silves	1040–1063	إشبيلية
طليطلة/Toledo	1010/1031–1085	قشتالة
طرطوشة/Tortosa	1039–1060	سرقسطة ثم دانية (١(٢)١٠٨١–١٠٩٢)
بلنسية/Valencia	1010/1011–1094	استولى عليها السيد
سرقسطة/Zaragoza	1018–1046	حكمها بنو تجيب ثم بنو هود ثم المرابطون (١٠٤٦–١١٠) ثم أرغون من ١١١٨.

ورد الجدول في كتاب *أوروبا والعالم الاسلامي* والتعريب لصاحب الورقة

Tolan, John, *Europe and the Islamic World: A History*. Princeton: Princeton University press, (2013). p. 40, 39-40.

١٠٠٩ (٤٠٠)، لكن ربما مد بعض المؤرخين أجله ليشمل مرحلة حكم الجماعة بزعامة أبي الحزم، أي سنة ١٠٣١. واكتفى بعض المؤرخين بمرحلة واحدة لما سُمي بعهد الطوائف في الأندلس استمرت نحو ٨٢ سنة ميلادية، إلا أن مؤرخين غيرهم رأوا ثلاثة عصور طوائفية واحدة لكل قرن من القرون الثلاثة التالية: الحادي عشر، والثاني عشر والثالث عشر.

واختلفت كل دولة من دول الطوائف عن غيرها بمساحة المنطقة التي سيطرت عليها وقوتها العسكرية والاقتصادية، ووصل عددها في إحدى المراحل إلى أكثر من ثلاثين مملكة أكبرها حجماً طليطلة وبطليوس وسرقسطة وقرطبة وبلنسية وغرناطة التي يمكن تصنيفها من دول الطوائف حتى القرن الثالث عشر لكن غرناطة كانت ملاذ كثيرين من الأندلسيين الذين اجتاح الشماليون بلادهم ، ثم سيطرت على معظم المناطق الجنوبية وصارت في القرن الخامس عشر دولة قوية لم يستطع اتحاد أرغون وقشتالة احتلالها خلال ١١ سنة من الحروب المستمرة، لذا يمكن فصل غرناطة عن باقي دول الطوائف، ويمكن ايضاً فصل تجمعات مهمة في جبال الجنوب وكانت لهم حرب شرسة مع كل من كارلوس الخامس وفيليب الثاني في القرن السادس عشر.

ويمكن القول إن غرناطة مثّلت في بعض مفاصل تاريخها اللاحق مرحلة مضيئة في تاريخ أندلسي تلقى ضربة ربما اعتُبرت قاضية بسقوط طليطلة، وانقلاب الموازين العسكرية والسياسية والاقتصادية في الأندلس من حال اعتاد فيه الأندلسيون على تلقي الجزية من ملوك الشمال إلى حال صاروا فيه يدفعون الجزية إلى سلالات الملوك اللاحقة. إضافة إلى الموازين هذه في شبه جزيرة آيبرية، كانت موازين أخرى تستعد لتشديد الضغط على الأندلس. ذلك أن انهيار الخلافة القرطبية وافق مرحلة حرجة من تاريخ أوروبة والمشرق، إذ سعت البابوية منذ النصف الأول من القرن التاسع إلى تدعيم سلطتها والبحث عن مخرج من الأزمات السياسية والاقتصادية التي عانت أوروبة منها. وتقوّت هذه الحركة في السنوات التالية إلى أن جاء البابا يوحنا العاشر فبدأ في الربع الأول من القرن العاشر الدعوة إلى حملة لإخراج المسلمين من إيطاليا.

واستغل البابا الاسكندر الثاني الضعف الذي ألمّ بالأندلس والمغرب فراح يحض النورمان على طرد المسلمين من صقلية والجزر الأخرى في البحر الشامي (الأبيض المتوسط) الذي كان بحيرة إسلامية في القرون الثلاثة السابقة. إلا أن هذه المساعي كانت محدودة على العكس من الحروب الصليبية التي بدأت في نهاية القرن الحادي عشر وشملت المشرق العربي مثلما شملت الأندلس أولاً ثم المغرب. ونحو نهاية القرن الحادي عشر بدأ الفرنسيون التدفق على ممالك شمال آيبرية لأسباب دينية ودنيوية شتّى. ولم يتمكن ملوك الطوائف من لجم الخطر القادم من الشمال لضعفهم وتفرقهم، فدفعوا الجزية إلى ملوك الشمال. لكن الجزية لم تستطع إبعاد شر الشماليين عنهم، بل قدّمت لملوك النصرانية الأموال التي ساعدتهم على استقدام المرتزقة ووفرت الحلقة الأخيرة في سلسلة الهزيمة فاستسلمت طليطلة عام ١٠٨٥.

وبسقوط عاصمة الثغر الأوسط بات واضحاً أن ميزان القوى مال إلى صالح الممالك الشمالية من دون رجعة، فدبّ الرعب في قلوب الناس وتعالت أصوات تنادي بالرحيل عن الأندلس. وكانت الأصوات تصرخ بمخاوف حقيقية إلا أن أصحابها كانوا قلة لأن غالبية السكان لم تكن تعرف غير الأندلس موطناً. وهكذا اختار البعض أهون الشرّين وطلبوا من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين نجدتهم. وتمكن السلطان يوسف من هزيمة ألفونصو السادس في معركة الزلاقة التي وقعت بعد سنة من سقوط طليطلة. لكن شعور السلطان أن بعض ملوك الطوائف يميل إلى الإتفاق مع ألفونصو، وقناعته بأنه أحق بحكم الأندلس من أهلها، أدى إلى استيلائه على السلطة في تلك البلاد الغنية. وبعدها تحوّل المجير إلى جائر تحكّم في الأندلس وأهلها فلا هو تركهم يقررون

مصيرهم ولا هو حماهم في كل الأوقات، إذ سقطت بلنسية بعد ثلاث سنوات من بداية عهد المرابطين في الأندلس، ولم يتمكن من استعادة طليطلة على رغم حصارها، وأعطى ألفونصو السبب لحض الفرنسيين على مساعدته، وفتح للبابوية بوابة آيبرية.

وترك عام ١٠٩٥ تأثيراً كبيراً في تطورات التاريخ تالياً إذ تسبب ضغط السلاجقة (السلجوقيين) الأتراك على الأمبراطورية البيزنطية في إجبار الأمبراطور أليكسيوس كومينوس على طلب العون من البابوية على رغم القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربيّة. واستغل واحد من باباوين كانا آنذاك على رأس الكنيسة الكاثوليكية هو البابا إربان (إربانوس) الثاني دعوة كومينوس لإخراج أوروبة من مآزقها السياسية والعسكرية والدينية ومأزقه الشخصي ودفع قسم منها في اتجاه البلاد الإسلامية بادئاً بذلك ما يُعرف باسم الحروب الصليبية. ولم يغفل إربان في خطبته الدعائية المشهورة أهمية نصرة المسيحيين الذين يحاربون المرابطين في الغرب لكن هدفه الأول كان المشرق. ولم يمض ٤٥ شهراً على الخطبة حتى كان الصليبيون يذبحون أهل بيت المقدس، مسلمين ونصارى، بعد اقتحام المدينة، ووجد العرب أنفسهم منذ ذلك التاريخ ضحايا حروب سلجوقية ثم عثمانية توسّعيّة لم تكن لهم فيها ناقة ولا جمل.

على الجبهة الغربيّة تمكن المرابطون من لجم أي تقدم حاسم للقشتاليين، إلا أن الدعم الفرنسي لمملكة أرغون ادى إلى احتلال سرقسطة عام ١١١٨ وتوج الفرنسيون بذلك تدخلهم الذي بدأه شارلمان قبل أكثر من ثلاثة قرون في ما عرف باسم الثغر الكارولنجي. غير أن صاحب نصر سرقسطة لم يتمكن من الاستفادة من نصره، فحاقت به الهزيمة في معركة قتندة. ولم يمض عقد على ذلك حتى كان المرابطون انهاروا مفسحين المجال لقوة مغربيّة جديدة قوضت سلطانهم في العدوة ثم الأندلس التي دخلت معاناتها مرحلة جديدة تحت حكم الأخوة في الإسلام.

وفيما انشغل الموحدون بتصفية حساباتهم مع سابقيهم، كانت القوات الصليبية المتوجهة إلى المشرق تساعد البرتغالي ألفونصو إنريكيث على احتلال لشبونة، بينما قدم الفرنسيون المساعدة لاحتلال طرطوشة على الساحل الشرقي. في وسط البلاد تمكّن الموحدون والأندلسيون من إفشال محاولة ألفونصو السابع احتلال قرطبة وجيّان، ومني خليفته ألفونصو الثامن بهزيمة منكرة في وقعة الأرك عام ١١٩٥ إلا أن الرعب الذي دبّ في أوصال الممالك الشمالية وأوروبة عموماً جاء عندما سقطت شلبطرة، حامية قشتالة، بعد ١٦ سنة من هزيمة الأرك. وعندها تولّت البابوية حملة جديدة فوحّدت الممالك الشمالية وأمرت أساقفة أوروبة بالدعوة إلى الجهاد ضد المسلمين وشحن العزائم وجمع الأموال فخرجت قوات شمالية وأوروبية كبيرة من طليطلة قاصدة جيش الموحدين والأندلسيين، وحققت عام ١٢١٢ انتصاراً ساحقاً في معركة العقاب.

3 :2 القرنان الأسودان

عرفت الأمّة قرنين من أسوأ القرون التي عاشتها في تاريخها الألفي الطويل. الثاني هو القرن السادس عشر عندما اجتاح العثمانيون بلاد الشام والحجاز ومصر، ومزّق البرتغاليون الخطوط التجارية الهائلة التي سيطر عليها العرب بين ميناء تيانجين في أقصى شمال الصين وميناء ممباسا على ساحل أفريقية الشرقي، وبدأ الإسبان ١٠٠ عام من الاضطهاد والمواجهة مع الأندلسيين نقلوا خلالها الحرب إلى المغرب، وكانوا احتلوا مليلة سنة ١٤٧٩، ثم آلت إليهم سبتة التي احتلها البرتغاليون سنة ١٤١٥.

القرن الأسود الأول أصحابه ملوك الطوائف في القراءة التاريخية. هو القرن الثالث عشر الذي دفع خلاله الأندلسيون، وأهل المغرب أيضاً، ثمن اشتغال الملوك بحماية ملكهم إلى حد التضحية بالممالك الأخرى وبسكانها

Bay of Biscayne
خليج بسقاية
FRANCE
Gulf of Lions
Oviedo
أوبيط ١٠٠٠
Lugo
لك قبل ٧٥٧
Bilbao
بلباو تأسست ١٣٠٠
Pamplona
بمبلونة ٧٤٨
اندورا
ANDORRA
Leon
ليون ١٠٠٢
Palencia
بلازيا ٩٢١
North Atlantic Ocean
المحيط الاطلسي
Huesca
وشقة ١٠٩٦
Gerona
جرندة ١٠١٥
Zamora
سمورة ١٠٦٥
Valladolid
بلد الوليد قبل ١١٠٠
Soria
سرية ١٠٠٢
Zaragoza
سرقسطة ١١١٨
Lerida
لاردة ١١٤٩
Barcelona
برشلونة ٩٨٥
Tarragona
طركونة ٨٠٨
Salamanca
سلمنقة ١٠٥٥
Segovia
شقوبية ١٠٨٥
PORTUGAL
برطقال
Avila
ابلة ١٠٩٠
Madrid
مجريط ١٠٨٣
Toledo
طليطلة ١٠٨٥
Teruel
طرويل ١١٧١
Cuenca
قونقة ١١٧٧
Balearic Sea
الجزائر الشرقية
Minorca
منورقة ١٢٨٧
Caceres
قاصرش ١٢٢٩
Valencia
بلنسية ١٢٣٨
Iviza
اليابسة ١٢٣٥
Balearic Islands
Majorca
ميورقة ١٢٣٠
Lisbon
لشبونة ١١٧٤
Badajoz
بطليوس ١٢٢٩
Formentera
Alicante
لقنت ١٢٦٦
Mediterranean Sea
Murcia
مرسية ١٢٦٦
Cordoba
قرطبة ١٢٣٦
Jaen
جيان ١٢٤٦
Silves
شلب ١١٨٩
Huelva
ولبة ١٢٥٧
Sevilla
اشبيلية ١٢٤٨
Gulf of Cadiz
Granada
غرناطة ١٤٩٢
Almeria
المرية ١٤٨٨
Malaga
مالقا ١٤٨٧
Cadiz
قادس ١٢٦٢
Strait of Gibraltar
جبل طارق ١٤٦٢
MOROCCO
تاريخ سقوط أهم المدن الأندلسية

أملاً في استمرار حكمهم. إلا أن العدو في تلك المرحلة لم يقتصر على أهل الشمال فتعاون القشاتلة والبرتغاليون والأرغونيون وجماهير الفرنسيين الفقراء على اجتاح واحدة من أكبر التجمعات السكانية في أوروبا وأثراها. هي مدن مثل قرطبة التي سقطت سنة ١٢٣٦ وإشبيلية ١٢٤٨ ولقنت ١٢٦٦ ومرسية ١٢٦٦ وقبلها قاصرش ١٢٢٩ وبطليوس ١٢٢٩ ثم بلنسية ١٢٣٨ وجيان ١٢٤٦ ولم يُختم القرن الأسود إلا وغرناطة بقية في أقصى الجنوب.

هذا الانهيار الشنيع حل في الجبهة الغربية وقت انهارت الخلافة العباسية في إثر اقتحام هولاكو بغداد والقضاء على المعتصم آخر خلفاء بني عباس سنة ١٢٥٨. وخلال هذا القرن المشؤوم جهد المشرق كله لصد سلسلة متلاحقة من الحروب الصليبية لم يتمكن من قصم ظهرها إلا عام ١٢٩١ فقوّض بذلك محاولات استمرت أكثر من ٢٠٠ عام لصنع الجمهورية المسيحية الدولية *Republica Christiana* . واعتباراً من نهاية القرن الرابع عشر لم يعد المسيحيون في حاجة إلى الذهاب إلى المشرق لأنهم نقلوا رموز المسيحية إلى بلادهم عندما عادوا من الحروب الصليبية بكمّ هائل من الذخائر المسيحية. كما لم تعد البابوية في حاجة إلى توجيه الجيوش إلى المشرق لقهر الإسلام لأن الإسلام جاء إليها على قدميه في صورة العثمانيين وبدأ يدق أبواب أوروبة ملغياً بذلك حلم احتلال بيت المقدس في حرب صليبية جديدة.

وخلّف القرن الثالث عشر في الأندلس مآسي إنسانية هائلة ونزوحات شملت أكثر من مليوني شخص. ومن قلب الأندلس المتقوّض ارتحل الملايين إلى مملكة غرناطة أو أرغون. وآثر قسم آخر اختصار المعاناة فقصد العدوة المغربيّة أو المناطق العربية الأخرى، إلا أن آخرين بقوا حيث عاشوا في الحالات التي سُمح لهم بذلك، وتدجّنوا في الأحياء التي خُصصت لهم في أكثر من ١٠٠ مدينة، وعاشوا مواطنين من الدرجة الثالثة بعد الإسبان والمهاجرين المسيحيين الأوروبيين، وأحياناً العبيد، في بلاد لم يعرفوا وأجدادهم من قبلهم غيرها على مدى ٦٠٠ سنة.

واعتباراً من منتصف القرن الخامس عشر بدأت مجموعة من التطورات المحلية والدولية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة؛ إذ أدى تمكّن العثماني محمد الفاتح من احتلال القسطنطينية إلى دفع البابوية للبحث عن انتصار سريع فراحت تحض قشتالة على تجديد الحرب ضد غرناطة. واندلعت المعارك هناك عام ١٤٦٢ وتمكّن القشتاليون، بمعونة أوروبية مهمة، من احتلال جبل طارق. وطرأ تطور حاسم بعد سنة من ذلك عندما اعتلت إيزابيلا عرش قشتالة. وكانت إيزابيلا ملكة ناجحة سجّل لها التاريخ الإسباني والدولي انجازات مهمة فتمكّنت من إزالة آخر سلطة إسلامية سياسية في شبه جزيرة آيبرية، ولو بطرق لا تليق بكبار الملوك، وكانت الأداة التي مكّنت قشتالة من اكتشاف العالم الجديد من خلال توظيف الجنوي كريستوفر كولومبوس، وبدء جهد كثلكة أكثر من ٦١٧ مليون شخص في أميركا اللاتينية (أي الناطقة بلغات أصلها لاتيني أو روماني مثل الإسبانية والبرتغالية والفرنسية) ونحو ١٠٠ مليون في الفليبين (نسبة إلى فيليب الثاني، ومنهم نحو سبعة ملايين مسلم)، وإنطاق نحو ٤٠٠ مليون شخص بالقشتالية (الإسبانية). إلا أن تعصّب إيزابيلا كان مفرطاً لذا عملت على صب هذا التعصب الممزوج بالمنافع الاجتماعية والاقتصادية في إطار مؤسساتي رهيب تحوّل الى أكبر منظمة اضطهاد ديني في أوروبة وربما في العالم، ويُقصد بها محاكم التحقيق الإسبانية التي قامت على الشرعية التي منحها البابا سيكستوس الرابع بعد أربع سنوات من اعتلاء إيزابيلا عرش قشتالة وتوابعها. وفي السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وجدت إيزابيلا، كما وجد كثير من الملوك قبلها وبعدها، أن أحد سبل وقف صراع النبلاء والانقسام الداخلي يكمن في شن الحروب. واستغلت رفض غرناطة الانصياع لمطالبها وأعلنت الحرب على المملكة الإسلامية عام ١٤٨١ بموافقة البابا ودعمه المالي الهائل، وسلّمت زوجها فرناندو قيادة الجيوش.

ولم يكن فرناندو يتوقع انتصاراً سريعاً إلا أنه لم يكن يتوقع أن تستمر الحرب ضد غرناطة ١١ سنة دارت خلالها

معارك طاحنة كانت الأعنف والأشرس في كل أوروبة. وزجّ فرناندو في المعارك ضد الغرناطيين أكثر من ٥٢,٠٠٠ جندي وفتحت له البابوية والأثرياء اليهود الإسبان الخزائن فغرف منها بلا حساب واستخدمها للحصول على أفضل المدافع الإيطالية في تلك الفترة، والإنفاق على المرتزقة الأوروبيين. وسقطت بسطة بعد ستة أشهر من الحصار لكن غرناطة ظلت صامدة على رغم سياسة الأرض المحروقة التي اتبعتها جيوش فرناندو بل حققت جيوشها انتصارات ملفتة. إلا ان تاريخ الأندلس الكبرى عاد وكرر نفسه في الأندلس الصغرى فعمل صراع الابن ضد أبيه وانقلاب العم على ابن اخيه على تمزيق تلك الوحدة الضرورية في ذلك الوقت الحرج. وفي النهاية لم تسقط غرناطة حرباً ولم تستسلم ولم يكن نصر إسبانيا وشيكاً عندما قبل أهل غرناطة معاهدة التسليم التي ضمنت فيها إيزابيلا للغرناطيين ما لم تضمنه لهم سلطتهم الإسلامية مع فارق أساسي هو أنها لم تكن تعتزم احترام بنودها.

3 :3 استحضار التاريخ

«التاريخ يعيد نفسه» مقولة شائعة لا أعرف صاحبها إلا أنه ربما كان من الواضح أن القائل افترض عضوية في التاريخ فيما هو سجل لأحداث تاريخية معينة. لا يوجد حضور عضوي في السجل التاريخي لأن التاريخ أحداث سابقة ولا يوجد شيء مثل «التاريخ الآتي» لأنه لا أحد يعرف ما هي الأحداث التي سيحملها الزمن القادم. أنبياء وأباطرة وملوك وقادة حرب، وغيرهم، صنعوا معظم التاريخ الذي نعرفه. التاريخ في المستقبل سيكون هو الآخر سجل أحداث صنعها أصحابها. الانسان يكرر أخطاءه. إذا كانت الأخطاء تاريخية فربما قيل إن الانسان يكرر التاريخ لأنه يكرر الأخطاء. الهدف الأساسي من عمل التأريخ هو المعرفة، لكن المعرفة أساس الحكم، مما يعني أن أحد أهداف التأريخ تحديد الأخطاء لا لتكرارها بل لتجنّبها.

الليلة ليست كما البارحة واليوم ليس كما الأمس لأن خط الزمن أمامي لا يتوقف لأحد. مع ذلك نعرف أشياء كثيرة عن الماضي فربما قيل في هذه **القراءة التاريخية** أن استحضار عرب اليوم تاريخ طوائف الأندلس في الأمس سيُنطق القارىء بقول مختلف ربما كان «ما أشبه الليلة واليوم بالبارحة والأمس». وكان في الأندلس مسيحيون كثيرون لكن معظم أهل الأندلس كانوا مسلمين سواء في عصر الأمارة أو الخلافة أو ممالك الطوائف. إذا محصّ الباحث في الطبيعة السكانية للأندلس في بداية القرن الحادي عشر فربما وجد أربع كتل بشرية هي العرب والبربر والآيبريين المسلمين وأحفاد الصقالبة. هذه كلمة يبدو أن أصلها يوناني بيزنطي «سكلابوي» (Sklaboi) يعني السلاف في وسط وشرق وجنوب شرقي أوروبا، وهم يشكلون اليوم نحو نصف سكان أوروبا. الأندلس كانت أهم طرق شحن العبيد الصقالبة إلى الدول العربية وغيرها، واشتغل كثيرون منهم مرتزقة في جيوش الأندلس، واستعان بعض ملوك الطوائف بهم لقتال نظرائهم. لكن يبدو أن نفوذهم في بلاط الخلافة كان قوياً، فرأت جماعة منهم بعد تردي الأمور في قرطبة تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر لأن الخليفة هشام المؤيد بالله كان صغيراً.[٢٩]

قرطبة كانت أهم مدينة أوروبية في عصرها بعدد سكان ربما عدّ نصف مليون شخص، وأغنى المدن الأوروبية. لو اتيحت لأمارة إشبيلية الفرصة فربما صارت قرطبة أخرى بعدما استوعبت عدداً من ممالك الطوائف. بطليوس أيضاً كانت أمارة قوية وسرقسطة لكن التراجع الأسبق جعلها جبهة قريبة من الممالك الشمالية. إذا كان للمؤرخ تحديد حالة واحدة جعلت نهاية الأندلس قريبة من الحتميّة فهي سقوط طليطلة. هذا السقوط اضطر الأندلسيين

٢٩ هذه إشارة أوردها عبد الرحمن الحجي في التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة، ص ٢٩٩ لكنه لم يثبت مصدره. الكتاب إصدار دار القلم، ١٩٧٦.

إلى استقدام المرابطين مثلما تسبّب سقوط لشبونة سنة ١١٤٧ باستدعاء الموحدين لكن في الحالتين كان اهتمام الجماعتين ضم ممالك الأندلس إلى الممالك المغربية.

ربما قيل إن سلامة المغرب ارتبطت بسلامة الأندلس. إن صح القول يصح أيضاً القول إن سلامة الشام ومصر ارتبطت بسلامة العراق على الجبهة الشرقية. ليس في المتاح من تاريخ الأندلس تحديد استراتيجي يدعم الافتراض أن الواقف في المغرب الناظر في اتجاه مكة لن يرى وراءه خطراً حقيقياً يهدد البلاد الواقعة بين المكانين. الخطر الوحيد الممكن من الأندلس، وربما لهذا سميت الأندلس ثغراً من ثغر الجهاد. الأندلس تولت حماية نفسها، لكن حماية نفسها كانت في الوقت نفسه حماية المغرب، وحماية المغرب حماية الامتداد في الشرق.

العمق الاستراتيجي، إذاً، هو المغرب، والعمق الاستراتيجي للمغرب باقي بلاد العرب وراءه. الحال نفسه في المشرق حيث العراق الجبهة الشرقية. فتح وسط الأندلس فتحَ الطريق لا إلى غرناطة فقط وإنما إلى المغرب. عندما انهار وسط الاندلس لم يعد الطريق مفتوحاً إلى غرناطة فحسب بل إلى المغرب والجزائر وتونس والبحر الأبيض المتوسط. الأندلس كانت دولة بحرية عملاقة آل معظم الأحواض الجافة فيها والأساطيل إلى البرتغاليين والقشتالة وأتاح لكل من البرتغال وإسبانيا التحوّل إلى امبراطوريتين بحريتين جبّارتين في وقت حرج تطلب من اسبانيا منافسة جارتها الصغيرة البرتغال للوصول إلى مصادر التوابل والحرير بسلوك أعالي البحار.

وهكذا صار الطريق البحري مفتوحاً أمام البرتغال لقصم ظهر تجارة المشرق العربي اعتباراً من السنوات الأخيرة للقرن الخامس عشر والوصول إلى مصادر التوابل والحرير التي هيمن العرب على تجارتها ألوف السنين عبر أطول خط تجاري بحري آنذاك امتد من الصين إلى سواحل افريقيا الشرقية. وبسيطرة البرتغاليين على التجارة المشرقية بدأ الاقتصاد العربي المشرقي يتقوّض فيما هيمنت أساطيل قشتالة وأرغون على مناطق شاسعة من البحر الأبيض المتوسط. حدث ذلك خلال فترة عصيبة طويلة أعاقت تجاوز مضاعفات الكارثتين التاريخيتين في وسط الأندلس والعراق لأسباب كثيرة منها تعاقب موجات الطاعون الذي نكب أوروبا في القرن الرابع عشر ثم انتشر إلى مصر ولبنان وسورية وفلسطين واليمن وطال مكة سنة ١٣٤٩.

وكان حال بلاد العرب في الحضيض عندما بدأت السلطنة العثمانية الانتعاش. واحتاجت السلطنة في بداية توسعها الأوروبي إلى نبعين لا ينضبان لتمكينها من تسيير جيوشها وأساطيلها: الأول هو الخشب المناسب لصناعة السفن، والثاني هو الرجال فحصلت على العنصرين من منطقة البلقان لكنها كانت في حاجة دائمة إلى المزيد من الرجال الذين تستطيع أن تثق بولائهم فحولّت جيوشها إلى أهم التجمعات الإسلامية القريبة منها آنذاك وغزت سورية (١٥١٦) ومصر (١٥١٧) واحتلت بغداد (١٥٣٤)، ثم انتزعت من الأسبان تونس (١٥٧٢) واستكملت خلال تلك الفترة الوسيطة احتلال العراق والحجاز وأقساماً أخرى من شبه الجزيرة العربية والشمال المغاربي، فيما بدأت أساطيلها تتصدى للأساطيل الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وبحر العرب وساحل أفريقيا الشرقي والمحيط الهندي وصولاً إلى إقليم آتشه في إندونيسيا.

وحمل القرن الثامن عشر منذ سنواته الأولى نزيفاً متجدداً أدمى جسد السلطنة وأطرافها تمثل في سلسلة من المعارك المدمّرة التي نشبت مع روسيا بين عامي ١٧٠٩ و١٧٩٢ كان بعضها أشبه بالمسالخ البشرية منه بالحروب فقتل أو جرح على الجبهات الروسية خلال ذلك القرن والقرن الذي تلاه ثم في بداية الحرب العالمية الأولى مئات الألوف. وكان من بين الضحايا عدد كبير من العرب الذين انتزعتهم السلطنة من حقولهم وأسواقهم فبارت التجارة في بلاد الشام وانتشرت المجاعات غير مرّة وتقوّض الوضع السكاني فبدت الشوارع والأزقة في الرسومات والصور التي التقطها الرحالة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين خيال العمارة

الإنسانية التي كانت.

وخلال القرن الثامن عشر وجدت السلطنة العثمانية نفسها تقع على سيفها تارة وعلى سيوف أعدائها تارة أخرى فتوالت الهزائم واستشرى الضعف وازداد ابتعاد جسد الإمبراطورية عن أذرعها فانسلخ علي بك الملقب بالكبير بمصر (١٧٥٧)، واعتلى مولاي محمد عرش مراكش (١٧٥٧)، واستقلت تونس (١٧٩٠) وسقطت مصر بيد الفرنسيين (١٧٩٨) وتبعتها الجزائر (١٨٣٠)، فيما احتلت بريطانيا قبرص (١٨٧٦) واستولت على مصر (١٨٨٢) بدعوى حماية قناة السويس التي كانت افتتحت لعبور السفن عام ١٨٦٩. واستاءت فرنسا من سيطرة منافستها الكبيرة على أرض مصر، فصالحتها بريطانيا بإطلاق يدها في المغرب ففرضت الحماية عليها (١٩١٢)، ثم صارت القوتان العظميان قوة واحدة بعد ذلك فاتحدتا لإذكاء نار الانتفاضات والثورات على تخوم السلطنة العثمانية في اليونان والبلقان أولاً فبلاد الشام، فيما تجمعت الغيوم الكثيفة فوق أوروبا وبلاد العرب وبدأ رعدها العنيف ينذر باقتراب أكبر نزاع عرفه التاريخ حتى ذلك الوقت، أي الحرب العالمية الأولى.

هل يحاول هذا المؤرخ تحميل ملوك الطوائف كل هذه النكبات التي طالت المغرب والمشرق معاً واستمرت مئات السنين ولا تزال آثارها قائمة في استمرار احتلال سبتة ومليلة؟

هذا ليس الهدف من هذه القراءة التاريخية وإنما هي محاولة لموقعة حال العرب اليوم. الحروب صنعت القسم الأكبر من التاريخ سواء كان تاريخ المنتصر أو تاريخ المهزوم. حقبة ملوك الطوائف اتاحت انتصار الشمال. إسبانيا صعدت على انقاض ممالك الطوائف وجيوش إسبانيا المظفرة خرجت من تحت عباءة حربها مع غرناطة، والبرتغال صارت امبراطورية يوم انطفأت آخر شموع الأندلس في لشبونة.

لا توجد لحظة واحدة مثل اختها تماماً، ولا يوم مثل الآخر ولا حقبة مثل أخرى. العرب في النهاية اضطروا للتضحية بالأندلس للابقاء على بلادهم وكان قراراً صائباً. نحن في وضع يشبه وضع ممالك الطوائف لكن ليس عند العرب أندلس أخرى يضحون بها لحماية بلادهم.

شكري الجزيل لجميع من ساهم في إنجاح هذا المؤتمر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ملاحظة على المصادر: هذه قراءة تاريخية معظم مصادرها أندلسية بما في ذلك: *البيان المغرب* (٣/ ١٥٠-١٥٢؛ ١٨٧، ٢١٠-٢١٣؛ ٢٣٤)؛ *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*: (١/ ٢/ ١١٥-١١٧)؛ *نفح الطيب* (١/ ٥٦٦)، وغيرها.

الملاحق

رحلة الأندلسيين الجدد من سقوط غرناطة إلى منافي العالم القديم والجديد

عادل سعيد بشتاوي

خرجت قشتالة إلى الوجود من تحت عباءة حربها مع الأندلس وخرجت إسبانيا إلى العالم من تحت عباءة حربها مع غرناطة. وخلال رحلة الأندلسيين من السيادة في وطنهم إلى الاستعباد دفع الإسبان ثلاثة ملايين عربي خارج بلادهم لذا يمكن اعتبار الأندلسيين من أكثر الشعوب المنكوبة آنذاك. وحاولت إسبانيا خلال أكثر من ١٠٠ عام تلت تسليم غرناطة في ١٤٩٢ قطع صلة الأندلسيين بدينهم ومجتمعهم وتذويب شخصيتهم إلا أنهم صمدوا وبقيت روحهم المعنوية عالية، وظلوا في سوادهم محافظين على دينهم وعروبتهم وعاداتهم حتى يئست الكنيسة من تنصيرهم، ويئست السلطة من إرهابهم فقررت تغريب قسم كبير منهم مطلع القرن السابع عشر وببدأ هؤلاء تغريبة لم يستطع الباحثون حتى الآن رسم خريطة وافية لها.

وكان الأندلسيون المُبعدون عن وطنهم أكبر ضحية لهذا القرار الإسباني، إلا ان أسبانيا خسرت أيضاً لأنها أبعدت مواطنين منتجين، ولم تنتبه إلى خطأ قرارها إلا عندما بدأت تبحث عن مكامن القوة في جسد الأمبراطورية الذي بدأ يترنح تحت ضغوط أعدائها في كل مكان خلال القرن السابع عشر. إلا أننا نعتقد عموماً ان الضحية الأهم في كل هذا هو مبدأ التعايش الذي عرفته شبه جزيرة آيبرية في فترات كثيرة من تاريخها الطويل، وكان في مراحل عدّة أحد أهم أسباب النهضة التي قامت على تضافر جهود أصحاب الأديان السماوية الثلاثة: الإسلام والنصرانية واليهودية. من هذه الزاوية بالذات نعتقد أن قرار طرد الأندلسيين الجدد كان طعنة قاتلة لمبدأ التعايش، وإقراراً من جانب الإسبان بعجزهم عن اعتماد هذا المبدأ وفتحوا بذلك، ربما من دون قصد، بوابة من العنصرية والقهر الديني وانعدام التسامح لا يزال العالم يعاني من تأثيراتها حتى اليوم.

١- المقدمات

١)- مدخل:

تتجلّى مأساة الأمّة الأندلسية في انقطاعها عن باقي الأمتين العربية والإسلامية خلال صدامها مع إيزابيلا وكارلوس الخامس وفيليب الثاني ثم فيليب الثالث في مرحلة من أكثر مراحل التاريخ إضطراباً. وسيطر الصراع بين العثمانيين ومعظم الأوروبيين، بمن فيهم الإسبان، على أحداث القرنين السادس عشر والسابع عشر. لكن عين الإسبان، واسلحتهم أيضاً، كانت موجهة إلى الفرنسيين الواقفين للتوسع الإسباني بالمرصاد، وإلى البرتغاليين سعياً وراء فرصة يُمكن اقتناصها لأخذ بلدهم الصغير، وإلى عرب المغرب لاعتماد بعض مدن الساحل المغاربي نقاط دفاع متقدمة ضد العثمانيين، ثم جاءت حركة الإصلاح الديني اللوترية وبدأت تهدد ممالك إسبانيا في هولندا وألمانيا والعالم الجديد.

وكان الأندلسيون، في رأي القسم الأكبر من الإسبان، القاسم المشترك الأعظم بين كل أعدائهم. فهم

مسلمون مثل العثمانيين، وعرب مثل أهل العدوة، وأنصار لفرنسا وفقاً للقول المشهور «عدو عدوي صديقي»، وإخوان الشقاء مع الهولنديين البروتستانت الذين خاضوا معركة دامية مع إسبانيا للحصول على استقلالهم استمرت ٨٠ سنة. وكان الأندلسيون في إسبانيا أقليّة كبيرة لا يُستهان بها وملكوا معرفة جيدة بأحوال البلاد ومنافذها لذا كانوا، في نظر الإسبان وعلى حد قول محدث منهم هو الدكتاتور فرانكو، «طابوراً خامساً» مستعداً للتعاون مع أعداء إسبانيا للخلاص من الاضطهاد الذي عانوا منه فتحينوا فرصهم دائماً. وفهم بعض ملوك إسبانيا هذا الوضع فحاولوا تخفيف الاضطهاد والتشدّد خلال فترات الاستقرار الداخلي والخارجي. لكن هذه الفترات كانت قصيرة جداً، وبدأ ارتفاع حدّة الضغوط ضد الأندلسيين داخلياً يواكب ارتفاع حدّة الضغوط الخارجية، ثم استقرت هذه الضغوط في مستوى مرتفع اعتباراً من بدء الحرب ضد البروتستانت في نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر.

حدث هذا لاحقاً، ففي السنوات القليلة التي اعقبت القضاء على الثورة الأندلسية الأولى لم تصل الضغوط الخارجية إلى الحد الذي كان معه التضييق الكبير على الأندلسيين ضرورياً. وكانت جماهير قشتالة آنذاك مبهورة من سرعة استجابة إيزابيلا لمطالبها بتمزيق المجتمع اليهودي وتمتّع المجتمعات القشتالية المحيطة بمملكة غرناطة بالفورة الاقتصادية التي ولّدتها الحرب الطويلة مع المملكة العربية لذا كانت الجماهير تخرج في الطرقات وتغني: «مهما ارتفعنا ومهما علونا ستبقى إيزابيلا وفرناندو أعلى منّا».[١]

ويجب القول إن الذي كان يُناسب المجتمع القشتالي في المئة سنة التي تلت تسليم غرناطة لم يكن يناسب المجتمع الأندلسي، وإن المجتمع القشتالي هو الذي استفزّ الأندلسيين لإعلان الثورة الأولى ثم لإعلان الثورة الكبرى. ويجب القول كذلك إن الملوك الإسبان الذين كتبوا مراسيم العفو عن الأندلسيين هم أنفسهم الذين كتبوا مراسيم العقوبات بالحبر نفسه، وإن الكاهن الذي كان يحاول أن يقنع الأندلسي في الكنيسة بفضيلة إدارة الخد الأيسر ينتمي إلى المؤسسة نفسها التي ينتمي إليها من كان يضرب الأندلسي في أقبية التعذيب تحت قصور محاكم التحقيق على خده الأيمن ثم الأيسر، ثم يركله بهذه القدم ثم تلك قبل أن يبدأ التعذيب الحقيقي بعد ذلك. كيف كان الأندلسي المسكين يستطيع أن يتصوّر الشخصيتين في شخصية واحدة وهو يرى فيهما الشيء ونقيضه؟ كيف كانت الأندلسيّة ستقتنع بقول القسيس إن الكنيسة محل الرحمة فيما هي تعرف أن الدير القريب منه قصر محكمة التحقيق التي لا تفرّق بين رجل وأمرأة، ولا شاب وعجوز؟.

٣)– الحقوق والواجبات

ورأى مؤرخون أن الأزمة بين الأندلسيين ومحاكم التحقيق ذات طابع ديني واضح لكنها أيضاً أزمة في شأن طبيعة الدور الذي أراد المجتمع الإسباني من الأندلسيين القيام به. إن حديث بعض المؤرخين عن مواجهة جدلية استمرت بين الإسبان والقشتاليين ١٠٠ عام لتحديد واجبات كل من الطرفين وحقوقه لا يستند إلى أرضية يمكن إثبات وجودها لأن الإسبان لم يقدموا للأندلسيين على مدى أكثر من قرن سوى خيار واحد هو التنصّر الذي لم يستطع معظم الأندلسيين قبوله. وخلال المئة عام تلك كان على الأندلسيين دائماً أن يقدموا التنازلات. لكن حتى لو قدّم الأندلسيون هذا التنازل الأخير وتنصّروا من المشكوك فيه أن يؤدي هذا إلى تغيير جذري في العلاقة التي نظر اليها بعض الإسبان من زاوية العلاقة المعروفة بين العبد والسيد. وماذا يحدث إذا استاء الإسباني من الأندلسي المُتنصر؟ سيتهمه بعدم الإخلاص في اعتناق النصرانية. وإذا استاء القشتالي من الأندلسي المخلص الإيمان بالنصرانية فبماذا سيتهمه؟ سيتهمه بأنه عربي. إذاً أين المخرج من هذه الأزمة؟ لم يكن هناك مخرج لهذا استمرت المواجهة بين الأمّتين الأندلسية والإسبانية.

وكان الأندلسيون يؤدون أعمالاً لم يتقنها القشاتلة أو تعففوا عن الاشتغال بها فهم الأطباء والبياطرة والخبّازون والحدادون والنجارون والخياطون والحذّائون وتجّار المواد الغذائية والبغّالون والفلاحون وموزعو الماء ومئات الوظائف الاخرى. وعلى مر العصور اعتاد القشاتلة حمل السلاح والاتجاه جنوباً نحو مراكز الانتاج الأندلسية والاستيلاء عليها وإغراء الأندلسيين بالبقاء فيها ليستمروا في إعمار البلاد ودفع الضرائب والأتاوات التي أغنت الخزانة. وكان الأندلسيون يؤدون هذا الدور في القرن الثالث عشر مثلما كانوا يؤدونه في القرن

السادس عشر وفي عصر الخلافة القرطبية قبلهما. وها قد صدرت مراسيم التنصير وصار كل الأندلسيين في قشتالة يُعتبرون متنصرين فمن سيتولى القيام بالأعمال التي كان الأندلسيون يقومون بها إذا صار هؤلاء متساوين في الحقوق مع القشاتلة فكان من بينهم القاضي ورئيس البلدية وقادة الجيش والمسؤولون الحكوميون وانفتحت فرص شغل المناصب الرفيعة أمامهم؟ بماذا سيتميّز القشتالي عندها؟.

هذا الوضع لم يكن يقلق الإسبان لأن قوانينهم واعتباراتهم كانت تحتوي آليّات ثابتة تضمن تميزهم في الهرم الاجتماعي. واعتباراً من مطلع العشرينات من القرن السادس عشر صدّرت مراسيم تعميد الأندلسيين فوضع الإسبان آليّة جديدة ميّزت بين النصراني الجديد والنصراني القديم. متى يمكن أن يصبح النصراني الجديد قديماً؟ لن يصبح في معظم الحالات نصرانياً قديماً مهما فعل لأن النصارى القدامى (الإسبان) سيكونون دائماً أقدم منه. إذاً أين المخرج من هذه الأزمة؟ لم يكن هناك مخرج لهذا استمرت المواجهة بين الأمّتين الإسبانية والأندلسية.

إن الحل المثالي القشتالي بالنسبة للأندلسيين هو إبادتهم عن بكرة أبيهم لكن تحقيق هذا الحل كان مستحيلاً لأسباب عسكرية ودولية ومحلية عدّة. صحيح أن المغاربة والعرب الآخرين والعثمانيين المسلمين لم يكونوا مع الأندلسيين في صف المواجهة الأول، إلا أن كل هؤلاء كانوا في الصف الثاني. وكان على إسبانيا أن تأخذ هذا في الاعتبار دائماً ففي ذلك الوقت لم يكن أحد في أوروبة أو الشرق الأوسط يعرف متى يمكن أن يأسره الطرف الآخر. أما الحل الثاني الذي فكّرت به السلطة بعد تسليم غرناطة فهو طرد جميع الأندلسيين كما طردت اليهود، لكنّ هذا الحل أيضاً كان مستحيلاً لأسباب عسكرية واقتصادية ودولية عدّة. الحل الذي أرتأته السلطة في النهاية كان محاولة إجبار الأندلسيين على قبول واجبات قشتالية وحقوق أندلسية؛ على محاولة إقناع الأندلسيين بمعاملة القشتاليين معاملة نصرانية تفضيلية وقبول معاملة القشتاليين لهم كمسلمين. أي باختصار أن يتخيل الأندلسيون أنفسهم أخوة القشاتلة في النصرانية لكن أن يتصرفوا في الواقع كعبيد مسلمين. إذاً أين المخرج من هذه الأزمة؟ لم يكن هناك مخرج لهذا استمرت المواجهة بين الأمّتين، ولهذا كان تحقيق المعادلة التي أرادها الإسبان مستحيلاً ولهذا بدأ مفهوم التعايش يقترب من التلاشي. وعندما كشف الجانبان أوراق بعضهما البعض وعرف الأندلسيون الدور الحقيقي الذي كانت محاكم التحقيق تريد القيام به لمصلحة السلطة والمجتمع المدني القشتالي، لم يعد هناك خيار آخر سوى المواجهة النهائية فإمّا أن يدمّر الأندلسيون القشاتلة، أو أن يدمّر القشاتلة الأندلسيين. وكانت هذه الرغبة مُتبادلة والإصرار عميقاً والقرار نهائياً والتماثل تاماً وشاملاً باستثناء اختلاف واحد حاسم هو نوع السلاح الذي استخدمه الطرفان.

٤)- صراع الحضارات

يجب أن يكون واضحاً تماماً أن رغبة الأندلسيين على مر العصور في استعادة بلادهم من الإسبان اصطدمت دائماً بضعفهم العسكري لذا لم يملك الأندلسيون في أي وقت تلى انهيار غرناطة القوة التي كانت ستسمح لهم بتحقيق انتصار عسكري شامل. صحيح أن القضاء على الثورة الأولى تطلب جهداً عسكرياً كبيراً من فرناندو، وصحيح أن القضاء على الثورة الأندلسية الكبرى تطلب من فيليب الثاني حشد قوات لم يكن يتصوّر أنه سيكون في حاجة إلى حشدها إلا لقتال دولة مثل فرنسا، لكن النتيجة لم تكن أيضاً محل شك. العامل الوحيد الذي ربما كان سيغير الميزان العسكري هو تدخل العثمانيين على نطاق واسع في إسبانيا (٢٠٠-٣٠٠ ألف جندي و٣٠٠-٤٠٠ سفينة) وهذا لم يكن ممكناً بسبب المشاكل اللوجستية الهائلة التي كانت ستنجم عن مثل هذا التدخل.

وحتى عندما تجاوز العثمانيون هزيمتهم في ليبانت عام ١٥٧١ وساهموا في الانتصار العظيم الذي حققه المغاربة على البرتغال في معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ اختارت الدولة العثمانية توجيه آلتها الحربية الهائلة إلى الصفويين في إيران بدلاً من احتلال إيطاليا وارتكبت بذلك واحداً من أهم أخطائها التاريخية. وكانت إيزابيلا تعرف أن الغرناطيين لن يحصلوا على أي مساعدة مهمة من الخارج عندما جرّت الأندلسيين الغرناطيين إلى ثورة كانت تعرف أنها ستخرج منتصرة منها، وكان فيليب الثاني يعرف أن العثمانيين لن يتدخلوا على نطاق واسع عندما جرّ هو الآخر الغرناطيين أنفسهم إلى ثورة ثانية كانت نتيجتها النهائية معروفة سلفاً.

وفي الفترة بين هاتين الحربين، ثم بعد ذلك باستثناء سنة التغريب، لم يكن احتكام الأندلسيين إلى السلاح

ممكناً، ولم يعد احتكام القشاتلة إلى السلاح ضرورياً فاشتبك الطرفان في حرب إبادة لا تقل ضراوة عن الحرب العسكرية السابقة كان سلاحها الإرادة، وكان هدفها الاستئصالي واحداً وواضحاً: إما أن يسحق القشاتلة إرادة الأندلسيين أو أن يسحق الأندلسيون إرادة القشاتلة. وبينما كان السلاح واحداً (الإرادة) كانت الذخيرة المستعملة مختلفة ومرنة ومتغيرة استجابت لحالات بعينها في فترات بعينها.

وربما بدا لبعضنا اليوم أن صدور مراسيم ملكية وأمبراطورية وإرادات بابوية تمنع الأندلسيين من التخاطب بالعربية أو ارتداء الزي الأندلسي أو الوقوف في اتجاه القبلة أو تمنحهم الغفران إذا اعترفوا «بذنوبهم» الإسلامية مجرد أشكال تقييدية تعرف السلطة أنها لا تستطيع فرضها على الأندلسيين. فكيف كانت السلطات ستمنع البنت الأندلسية من التخاطب بالعربية مع أمّها في البيت وهما تطبخان عشاء الأسرة؟ وكيف كانت السلطة ستعرف من يقف في اتجاه القبلة في الليل أو في الجبال بعيداً عن عيونها؟

إنّ إعادة النظر في مثل هذه القيود وغيرها المئات ستكشف هدفاً نهائياً هو إخراج الأندلسي من خندقه الإرادي الديني والاجتماعي والحضاري أولاً، ثم قطع حبال الصلة واحداً واحداً مع رموزه الدينية والحضارية ثانياً، ثم إحلال الرموز القشتالية والكاثوليكية محل الرموز العربية والإسلامية. ويجب أن يكون واضحاً هنا أن قشتالة زجّت خلال أكثر من ١٠٠ عام طاقات هائلة لتحقيق هذه الغاية قادتها محاكم التحقيق بدعم شبه شامل من المجتمع القشتالي وكنيسته وملوكه وحكومته.

ولم يكن واضعو هذه الاستراتيجية يشكّون في البداية في نجاحها لأنهم طبقوها بنجاح شبه شامل على اليهود وبنجاح كامل على المواطنين الأصليين في أميركا الجنوبية. لكن بدأ يتضح بعد الحرب الأندلسية الأولى أن التجربة اليهودية لا يمكن تطبيقها على الأندلسيين على رغم الامكانات التي خصصتها قشتالة لهذه الغاية. ووجد الإسبان بعد ذلك أن التجربة التي أدت إلى تحقيق نجاح هائل في العالم الجديد حيث تكتلك ملايين الهنود (الحمر) بجزء بسيط من الجهد المُخصص لكتلكة الأندلسيين، لم تكن أيضاً مجدية مع الأندلسيين في إسبانيا الذين كانوا «يرجعون إلى بيوتهم من الكنيسة بعد إقامة القدّاس»، كما تقول الأندلسية خوانا هرنانديث، «وهم يشعرون أنهم باتوا أكثر انتماءً للعروبة مما كانوا قبل الذهاب إلى الكنيسة».[٢]

لماذا يا ترى؟ لأن الذخيرة المعنوية والدينية والحضارية التي استخدمتها قشتالة في الحرب ضد الأندلسيين لم تكن بفاعلية ذخيرتها الحربية، لذا لم يقتنع الأندلسيون بعد ١٠٠ سنة من التبشير الاضطهادي القسري بأن الكاثوليكية القشتالية أفضل من الإسلام، وبأن اللغة القشتالية أكثر تعبيراً من العربية، وبأن لحم الخنزير أفضل من لحم الضأن، وبأن شرب الخمر أفضل من شرب الحليب بالعسل، وبأن السروال القشتالي أفضل من السروال الأندلسي، وبأن مسح المؤخرة بورقة أفضل من غسلها. وباختصار خرجت قشتالة من معركتها العسكرية ضد الأندلسيين بانتصار كبير، لكنها خرجت من معركتها الحضارية والدينية مع الأندلسيين بهزيمة كبيرة لم تعترف بها إلى بعد قرن من المحاولة فعادت ولجأت إلى الحل الوحيد الذي تعرفه جيداً وهو القضاء العضوي على خصومها بالقتل أو التغريب. وباختصار أيضاً كانت قشتالة عملاقاً عسكرياً فيما كان الأندلسيون أقزاماً، لكنها كانت قزماً حضارياً جديراً بالاحتقار في عيون الأندلسيين الذين نظروا دائماً إلى القشاتلة على أنهم محتلون لأرضهم ولم يتمكّنوا من غرناطة إلا بالخديعة والمكر.

وتتجلى هذه الرؤية في ما يخاطب به القائد الأندلسي ابن أميّة رسولاً قشتالياً قبل إعلان الثورة الأندلسية الكبرى: «الا تعرف أننا في إسبانيا، وأننا ملكنا هذه الأرض ٩٠٠ سنة؟»،[٣] ثم تتجلى بعد القضاء على الثورة بما سجّله كاتب أندلسي موريسكي: «نظراً إلى عدم استطاعة (الإسبان) شد قلوب الأندلسيين الموريسكيين بعيداً عن عقيدتهم الصلبة وجلبها إلى دينهم الشيطاني (النصرانية)، فإن البعض كان يقترح إبادتنا جماعياً، فيما أراد البعض الآخر خصينا بقضيب أحمر مُحمّى في مكان من الجسم حتى لا ننسل ونفنى كأن في يدهم القدرة على تغيير ما أملته العناية الربّانية الأزليّة».[٤] وفي المقابل رأى الإسبان الأندلسيين من منظار العداوة لهم والصداقة مع أعدائهم العثمانيين والمغاربيين والبروتستانت والفرنسيين. وكان كثيرون من المخلصين الإسبان يطالبون بزيادة الجهد لمساعدة الأندلسيين على التنصّر وينادون بالصبر والاعتدال، إلا أن كثيرين غيرهم كانوا يرون في استمرار ذلك الجهد عبثاً ونفقات لا يمكن تسويغها. وساق هؤلاء لتأكيد استنتاجاتهم أمثلة لا تُعدّ ولا تُحصى منها مثلاً أن

الأندلسيين كانوا يذهبون إلى الكنيسة لتفادي عقوبات محاكم التحقيق لكن ما أن يرفع الكاهن القربان المقدس حتى يدير الأندلسيون ظهورهم إليه ويؤدّون حركات «مخلّة بالحياء»، بل تجرأ «أحد الكلاب الملعونين من هؤلاء الكفّار (أي الأندلسيين) اثناء قدّاس على رمي القربان المقدس بقطعة قماش قديمة فيها فضلات بشرية». [٥] ووجد مبعوث لمحكمة التحقيق بعد التقاء كهنة كثيرين إجماعاً على الشكوى من «سوء أدب» الأندلسيين لكنّه خصّ السيدات الأندلسيات اللواتي كن يأتين إلى الكنيسة محجّبات ويرفعن أصواتهن خلال القّداس أو يقرقرن أو يجلسن جلسة لا احترام فيها للكنيسة ولا لراعيها. ويجب الا يُفسر هذا على أنه احتقار للكاثوليكية بل تعبير عن احتقار أساليب الإسبان، ونوع واضح من أنواع الاحتجاج على سوء المعاملة التي كانوا يلقونها على أيديهم خصوصاً بعدما أصبحت الكنيسة رمزاً صارخاً من رموز اضطهاد الأندلسيين.

٥)- حرب الإرادة

وبدأت مناوشات هذه الحرب الحضارية والدينية منذ الأيام القليلة التي لحقت بتسليم غرناطة، ثم بدأت بعد ذلك تأخذ أشكالاً دينية وثقافية واجتماعية وعسكرية وعصيانية. ولم يعد الأندلسيون قادرين على ممارسة دينهم وثقافتهم وعاداتهم علناً فصاروا يمارسونها بعيداً عن عيون محاكم التحقيق والكنيسة والقشاتلة، ولم يكن الأندلسيون قادرين على بناء دولتهم في العلن فبنوها عبر شبكة سرية هائلة من المؤسسات الدينية والثقافية والتعليمية، تضمّنت في بعض مراحلها، وفي صورة أكثر سرّية، جمع الأسلحة والتدريبات العسكرية.

ولو كان الأمر يتعلق بقشتالة وحدها فربما كانت اندفعت إلى حرب شاملة مع الأندلسيين بصرف النظر عن النتائج العسكرية والاقتصادية التي كانت ستنجم عنها، إلا انه كان على إيزابيلا أن تأخذ في الاعتبار ليس مصالح النبلاء في قشتالة ومملكة غرناطة فقط بل أيضاً مصالح زوجها فرناندو ملك أرغون. وخلال عهد فرناندو ومن جاء بعده ظلّ الأندلسيون قوة كبيرة في أرغون اعتمد عليهم استقرار اقتصاد تلك المملكة ورخاء عدد كبير من نبلائها. ولم يكن إضعاف ذلك الاقتصاد واستفزاز مراكز القوى في أرغون عملاً حكيماً في الوقت الذي احتاجت فيه إسبانيا إلى المحافظة على طاقتها ووحدتها لمواجهة العثمانيين والفرنسيين وأمراء حركة الاصلاح الديني البروتستانتي في ألمانيا. وهكذا لجأت قشتالة إلى محاكم التحقيق لتفتيت إرادة الأندلسيين شيئاً فشيئاً ودفعهم إلى اليأس من الصمود إلى ما لانهاية. وقابل الأندلسيون هذا الجهد بالسعي إلى زيادة لحمتهم وفق ما تسمح به الظروف، والارتداد إلى دينهم وتاريخهم وحضارتهم وعروبتهم وكل الرموز الأخرى التي باتت أهم أسلحتهم وآخرها حتى اللحظات النهائية من وجودهم في إسبانيا.

ويوجد إجماع لدى معظم المؤرخين الذين وضعوا مئات المؤلفات عن تغريب الأندلسيين من إسبانيا في مطلع القرن السابع عشر على أن التغريب (نفي أو طرد أو إبعاد الخ. . .) قرار إسباني. إلا أن في تردد الإسبان وطول فترة التغريب وشروطه وبعض مواقف الأندلسيين أنفسهم ما يقود إلى استنتاج مختلف هو أن قسماً مهماً من الأندلسيين لم يكونوا أقل رغبة من معظم الإسبان في هجر بلادهم إلى مناطق أخرى يستطيعون فيها ليس فقط ممارسة دينهم وعاداتهم علناً بل أيضاً تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاستفادة من الفرص التي لم تكن متوافرة لهم في إسبانيا، ولن تكون متوافرة في إسبانيا مهما فعلوا. ولم يكن صعباً على معظم الأندلسيين إبراز الوثائق التي تثبت ذلك عبر ١٠٠ سنة من النهب والاضطهاد والملاحقة والتضييق الديني والفكري والاقتصادي والاجتماعي وانعدام الفرص الجيدة التي ربط الإسبان الحصول عليها بمجموعة من الشروط الدينية والعرقية انطبقت عليهم فقط.

وربما كان استنتاج بعض المؤرخين الإسبان بأن الحكومة وجدت نفسها مضطرة إلى طرد الأندلسيين الجدد «لأنهم لم يقبلوا ديننا الكاثوليكي الطاهر» جهداً ضائعاً أحد أهدافه غسل الضمير من عار تلك العملية البائسة وحشد تعاطف الكاثوليك الآخرين وتفهمهم لذلك القرار. ولا بأس في استنتاج مثل هذا لأنه يبقى مجرد رأي والرأي ليس فرضاً إلا أن الانتقاد الأول الذي يمكن أن يُوجه إليه هو العودة إلى استغلال الكاثوليكية لإخفاء الأسباب الأخرى التي كانت أهم بكثير من العامل الديني.

إن الانطباع بأن الأندلسيين في إسبانيا القرن السابع عشر كانوا بقايا المحتلين المسلمين الأوائل وهمٌ في عقول

بعض العرب المشارقة فقط. الأندلسي لم ير نفسه هكذا. الأندلسي رأى نفسه صاحب أرض عاش عليها ٩٠٠ سنة وصاحب بيت ضمّه وضم أباه وجده وربما جد جده إلى ما لانهاية، لذا له حق في استمرار البقاء في إسبانيا يعادل حق الإسباني إن لم يتفوّق عليه. إن أحفاد الآيبريين والآيبريات الذين كانوا يعيشون في بلنسية وغرناطة والمرية ومرسية وطليطلة ومئات المدن الأخرى قبل الفتح العربي الإسلامي ليسوا فقط النصارى الذين كانوا يسكنون المدن نفسها في القرن السابع عشر، بل الأندلسيون أيضاً. من أين جاء جنود طارق بن زياد وموسى بن نصير بزوجاتهم؟ من الآيبريات. ومن كان أبناؤهم سوى أبناء الآيبريات اللواتي كن يعشن في شبه الجزيرة آنذاك؟

إذاً كان هناك دينان في إسبانيا هما الكاثوليكية والإسلام، لكن كانت هناك أيضاً قوميتان لكل منهما ميزات وخصوصيات متفرّدة، وبينهما دائرة تلاق محدودة أمكن من خلالها تعايش أبناء القوميتين وفق الشروط والضغوط الدينية والاقتصادية والاجتماعية التي عرضنا بعضها في مكان آخر. ولا يمكننا من موقعنا الزمني الحالي تقديم تصوّر عن طبيعة العلاقات بين الأندلسيين والإسبان لو لم تعصف المشاكل السياسية والدينية والعسكرية بممالك كارلوس الخامس وابنه من بعده في أوروبة. لكن يمكن القول ان الأندلسيين عرفوا حدودهم وقوتهم العسكرية وحاولوا التصرف كمواطنين صالحين والتعايش مع أدنى حدود الحريات الدينية والاجتماعية، وسددوا دائماً ثمن هذه الحريات نقداً أو دعماً أو تعاوناً حتى مع محاكم التحقيق.

ومع ذلك فاقت الأمور في حالات عدّة حدود الاحتمال وأدت إلى ثورتين رئيسيتين وانتفاضات عدّة اشترك في إحداها نحو ١٣٠ ألف أندلسي، إضافة إلى انتفاضات أخرى رافقت تغريب الأندلسيين. ولو درسنا أسباب كل تلك الثورات والانتفاضات لوجدنا أن الإسبان دفعوا الأندلسيين إلى كل واحدة منها عن سابق إصرار وترصّد. فالإسبان هم الذين زاحموا الأندلسيين على اقتصادهم، وهم الذين صادروا أراضي الأندلسيين، وهم الذين أحرقوهم وسجنوهم وفرضوا عليهم محظورات بلا نهاية في لوائح بلا نهاية كان أولى بالإسبان اعتماد بعضها مثل الإغتسال مثلاً أو ارتداء قميص نظيف يوم الجمعة بدلاً من اعتبارها جريمة تستحق مصادرة الأموال.

وعندما أخفق الأندلسيون في الحصول على الحد الأدنى من الحريات علناً أعطوا لنفسهم كل الحريات التي يريدونها في السر فصار سلوك المجتمع الأندلسي أشبه بجبل الثلج العائم في البحر- قسم صغير منكشف على عيون محاكم التحقيق ومعظم الإسبان، وقسم أكبر منه بكثير تحت الماء أو في الخفاء، تحوّل مع الزمن ومع تحسّن التنظيم إلى ما يشبه الدولة الأندلسية الإسلامية العربية السرّية. وكما يفعل كل المُضطهدين، سعى الأندلسيون مدفوعين بالرغبة في البقاء والاستمرار إلى التحالف مع كل الجهات التي تستطيع المساعدة سواء كانوا أهل الساحل المغاربي أو العثمانيين أو الفرنسيين أو البروتستانت.

لكن هذا حدث في مرحلة لاحقة لأن الأندلسيين حاولوا قبل ذلك مساعدة المجتمع الإسباني على تغيير تعامله معهم من دون جدوى، واتضح بعد ١٠٠ عام من التجربة عقم كل هذه المحاولات لاستمرار تعايش من نوع ما، ووصل الجانبان إلى طريق مسدود، ولم يعد احدهما قادراً على تقديم التنازلات التي يريدها الآخر لأن جعبة الأندلسيين من التنازلات كانت خوت تماماً ولم يبقَ شيء يستطيعون التنازل عنه والاستمرار في استبقاء الحد الأدنى من الكرامة والوجود.

٢- تغريب الأندلسيين من اسبانيا: الاعتبارات الأندلسية

١)- ١٠٠ عام من النهب

في استطاعتنا اليوم اعتماداً على الأبحاث الجديدة المتصلة بالأندلس تقديم الدافع الاقتصادي على الدافع الديني الكاثوليكي لتفسير اجتياح الجنوب الأندلسي، بل ربما وضع الدافع الديني جانباً في الحالات التي عيّن فيها

ملوك إسبانيا أنفسهم ملوكاً على الملل الكاثوليكية والإسلامية واليهودية. ويجب أن نلاحظ ونحن نتحدث عن سقوط الأندلس ان وديان أنهر دويرة وإبرة وشقّورة والوادي الكبير لم تكن فقط مواطن المسلمين بل أيضاً مواطن الثروة والانتاج. وعمل الإسبان في الزراعة والصناعة والتجارة والتمويل مثلهم مثل الأندلسيين أو اليهود، غير أن باقي الإسبان، سواء في القرن الثالث عشر أو في القرن السادس عشر، كانوا إما جنوداً في جيوش إسبانيا في العالمين القديم والجديد، أو كهنوتيين في ١٨,٠٠٠ دير وكنيسة وظّفت أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ شخص من أصل نحو ثمانية ملايين نسمة. ولم يكن هناك فرق كبير بين مهمة الجندي والكهنوتي فكلاهما كان يعتقد أنه يخدم الكاثوليكية والملك والبلاد في آن، وكلاهما كان غير منتج اقتصادياً. وحتى المشتغلون منهم بالزراعة – عماد اقتصاد كل الدول الأوروبية في تلك الفترة – كانوا ذوي انتاجية ضعيفة كما يعترف الإسبان أنفسهم، لذا لم يشجع النبلاء المزارعين الأندلسيين على العمل في ضيعهم فقط بل عملوا على تحفيزهم وحمايتهم من السلطة في الحالات التي تمكّنوا فيها من ذلك.

وكان من بين الأمّة الأندلسية، إضافة إلى ما عرضناه، الأثرياء الكبار والمتمولون والتجار وأصحاب مصانع الحرير وتكرير السكّر والصابون وملاك الكروم والأراضي الواسعة التي يُزرع فيها الرز وآلاف المشتغلين بالتأليف والمحاماة والبيطرة والطبابة حتى أننا نجد الحاكم العام في مدينة طليطلة يشتكي الى البلاط الملكي عام ١٦٠٧ من ارتفاع عدد الأندلسيين الذين يدرسون الطب في مدرسة طليطلة ويحذر من استغلال الأندلسيين هذه المهارة لقتل المسيحيين. لكن ألا يغالط هذا الحديث السابق عن تردي أحوال الأندلسيين؟ والجواب هو النفي إذ علينا أن نتذكر أن الأندلسيين ملكوا المهارات التي مكّنتهم من تجاوز النكسات التي تعرضوا لها عبر تاريخهم. وحتى في بعض المناطق الفقيرة التي نفاهم إليها الملوك نرى كثيرين منهم يعودون إلى تحقيق مستوى مقبول من العيش، بل وبناء الثروة بفضل ما اشتهروا به من حرص في الإنفاق وقدرة على جمع المال ومهارة في إحياء موات الأراضي الزراعية التي أهلكها القشاتلة. ونجد ان الحكومة الإسبانية التي نفت معظم الأندلسيين من غرناطة بعد الثورة الكبرى وهددتهم بالقتل ان اقتربوا من المدينة، تغيّر موقفها وتسمح لهم بالعودة إلى تلك المملكة بعد عشر سنوات من النفي بأعداد كبيرة لأنهم كانوا «أصحاب الحوانيت والخبّازين والقصابين وأصحاب الحانات وحملة الماء وبهذه الطريقة يجمعون المال ويخفونه كله فلا يشتري أحد منهم العقار ولا يملكه ولذا فهم أغنياء جداً وأقوياء جداً».[٦]

وتباينت حظوظ الأندلسيين الاقتصادية من مكان إلى آخر فكان وضع سكان أرغون وغرناطة أفضل من وضع الأندلسيين في مدن وقرى القشتالتين القديمة والجديدة، وكان الأكثر فقراً من الفئتين الأخيرتين سكان قشتالة الجديدة (مناطق مدريد ووادي الحجارة وطليطلة وقونقة والمدينة الملكية) إذ عاشوا في هذه الرقعة التي تُعتبر من بين أنحس بقاع إسبانيا وأجفّها في وضع نفي أو قريب من النفي، وتحت إقامة جبرية أو قريبة منها. ومع الزمن انضم إلى هؤلاء الفقراء عدد كبير من الأندلسيين الذين بدأت محاكم التحقيق تصادر أموالهم وأملاكهم لأسباب يبدو بعضها تافهاً، أو توقيع غرامات مالية في حقهم. وتحولت هذه المصادرات إلى عملية نهب منظمة انتقل خلالها قسم كبير من ثروة الأندلسيين وأراضيهم إلى الخزانة الحكومية أو صُرفت على محاكم التحقيق. ومن سلم من الأندلسيين من هذه المعرات وجدوا انفسهم مضطرين إلى تقديم مبالغ كبيرة جداً إلى الملوك ثمناً لبعض الحريات، أو تقديم مبالغ أقل الى النبلاء والرسميين والمتنفذين وبعض عمّال محاكم التحقيق في شكل رشاوى وعطايا وهدايا ثمناً للسلام أو إبعاداً للشرور والتضييق وغيرها من الاسباب المماثلة كثير.

وكان من الممكن أن يعود عدد كبير من الأندلسيين إلى تحسين أوضاعهم الاقتصادية وبناء ثرواتهم المنهوبة لكن مساعيهم اصطدمت في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن بعده بتردي الاقتصاد الإسباني نتيجة عدد من السياسات الداخلية والخارجية التي اتبعها فيليب الثاني. فداخلياً أدّت طريقته في قمع الثورة الأندلسية الكبرى وما تبعها من نفي قسم كبير من الغرناطيين إلى إلحاق أضرار بالغة باقتصاد مملكة غرناطة. وساهمت القيود التي فرضها على النبلاء الأقل وزناً المعروفين باسم Hidalgos في تضييق فرص التحسّن الاقتصادي فبدأوا يهاجرون إلى العالم الجديد. كما تسبّب تدفق الفضة إلى إسبانيا في ارتفاع الأسعار ووصول التضخم الى مستويات فاحشة في وقت بدأت فيه النفقات العسكرية تسجل زيادات حادة. وبدلا من خفض الضرائب في أوقات الشدّة هذه

لتعزيز السيولة وزيادة الإنفاق عمد فيليب الثاني إلى زيادة الضرائب[٧] فتعمّقت الأزمة الاقتصادية ووجد فيليب الثاني نفسه مضطراً إلى إعلان إفلاسه مرة ثم ثانية.

وتوافق ارتفاع النفقات الحربية مع تغيّرات جذرية في طبيعة الاقتصاد الاسباني سببت هي الأخرى أزمات اقتصادية خانقة. وسبب ذلك أن الحركة التجارية التي قامت بين إسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد تركّزت على سد حاجات المستعمرات من الثياب (حتى لو عن طريق إجبار الهنود على ارتداء السراويل الصوفية) والقمح والزيت والخمور والمواد الأخرى المُنتجة أو المصنوعة في إسبانيا. لكن في نهاية القرن السادس عشر بدأت المستعمرات تغطي جزءاً مهماً من استهلاكها المحلي فضرب الكساد إسبانيا لأول مرة منذ اكتشاف العالم الجديد قبل ١٠٠ عام من ذلك.

وحدث شيء غريب بعدها إذ وافق انحسار صادرات إسبانيا إلى العالم الجديد ازدياد حصة هولندا التي ملكت أكبر أسطول تجاري في العالم آنذاك، وكانت سفنها تنقل الكمية الأكبر من البضائع إلى العالم الجديد. وعصت الأقاليم الشمالية من هولندا على فيليب الثاني وأعلنت انفصالها فمنع الملك الإسباني التعامل مع السفن الهولندية عام ١٥٨٥، وقصر نقل البضائع على السفن القشتالية، ثم عاد وأكد منع الهولنديين ثانية من التعامل التجاري مع المستوطنات الأميركية عام ١٥٩٥.

ووجد الهولنديون المستقلون عن فيليب الثاني أن استمرار تجارتهم المربحة يقتضي كسر احتكار إسبانيا فبدأوا جهداً خاصاً تمكنوا بعده من فتح الأسواق في بعض المستعمرات الإسبانية وأتاحوا لحليفتهم انكلترا الاستفادة من تلك التجارة. وسعت حكومتا فيليب الثاني وابنه فيليب الثالث من بعده إلى تشجيع حركة تجارية أنشط في مستعمرات العالم الجديد، لكنهما وجدتا صعوبة في تحقيق ذلك لأن السوق بدأت تتقلص نتيجة الخلل السكاني الذي ضرب بعض تلك المستعمرات.

وبينما قدر عدد السكان المحليين المكسيكيين سنة استيطانها عام ١٥١٩ بنحو ١١ مليون نسمة، نجد أن العدد انخفض في نهاية القرن السادس عشر إلى نحو المليونين فقط. وحدث ذلك نتيجة السياسة العنصرية التي انتهجتها إسبانيا هناك وتفشّي الأمراض التي حملها الإسبان إليهم وتسخير السكان المحليين للعمل في المزارع ساعات طويلة مما أدى إلى انهاكهم وموت أعداد كبيرة منهم فتقلص الاستهلاك وارتفعت كلفة انتاج المواد والمعادن التي كانت تُنقل إلى إسبانيا.

وفي القسم الأخير من القرن السادس عشر تعرضت إسبانيا إلى جفاف خطير. وتبع الجفاف انتشار الطاعون شمال البلاد عام ١٥٩٦، ثم امتدّ الطاعون بعد ذلك جنوباً فحصد بين عامي ١٥٩٩ و١٦٠٠نحو ١٥ في المئة من السكان. وعندها ساد الذعر وارتفعت الأسعار، ونزلت بالاقتصاد ضربة عنيفة استمر تأثيرها فترة طويلة. وتحسنت التجارة مع المستعمرات في العالم الجديد بعد ذلك ووصلت أوجها عام ١٦٠٨ لكن استفادة إسبانيا كانت قليلة لأن الهولنديين والانكليز والفرنسيين كانوا ينقلون القسم الأكبر من واردات المستعمرات.

وعمل الأندلسيون في إسبانيا في كل القطاعات الانتاجية والتجارية والخدماتية، لذا استفادوا جيداً من التجارة مع مستعمرات العالم الجديد في البداية. لكنهم بدأوا يعانون من الكساد الاقتصادي وتراجع الطلب على منتوجاتهم وخدماتهم في الوقت الذي استمرت فيه السلطة ومحاكم التحقيق في مصادرة أموالهم وممتلكاتهم وفرض الغرامات المالية الكبيرة عليهم. وفي السنوات القليلة التي سبقت التغريب، كان عدد كبير من الأندلسيين يعيش في الضواحي أو في الأحياء الفقيرة من عدد كبير من المدن الأرغونية والقشتالية مثل سرقسطة وابلة وجيان وسيمانقة وطرطوشة ومرسية وطليطلة وبلد الوليد ومئات المدن غيرها. وتدلنا التجربة أن الأحقاد العرقية والدينية تبرز أكثر ما تبرز خلال الضائقات المالية والكوارث الطبيعية، لذا اتسمت العلاقات بين الإسبان والأندلسيين في نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر بدرجة عالية من التوتر والريبة المتبادلتين.

٢) – ١٠٠ عام من الاضطهاد

بين استسلام غرناطة وصدور قانون التغريب ١١٧ سنة لم تُرفع فيها المظلمة عن الأندلسيين يوماً واحداً فاتحدت السلطة ومحاكم التحقيق ومعظم رجال الكنيسة وجل الإسبان في جهد اضطهاد الأندلسيين. ونحو نهاية

عام ١٥٧٠ تمكن فيليب الثاني من إخماد الثورة الأندلسية الكبرى بعد قتل ما لا يقل عن ٢٠ ألف أندلسي وأندلسية ونفي عشرات الألوف وتحويل أعداد منهم إلى عبيد في بيوت الإسبان أو مجذفين في سفنهم. ولم يبق بعد كل هذا سوى رأس مولاي عبدالله بن ابيه مُعلقاً على بوابة غرناطة حيث بقي ٣٠ سنة يذكّر بالنهاية التي تنتظر من يتحدى الملك.

وعاش عشرات الألوف من الأندلسيين في منافيهم الجديدة في القشتالتين الجديدة والقديمة أقليّة مقهورة بين غالبية متسلّطة وعانوا من المشاكل التي تعاني منها الأقليات في كل مكان إلا أنهم واجهوا أيضاً مشاكل اضافية فكان معظم الإسبان يعتبرها أقليّة مارقة على السلطة وعدوة للكاثوليكية ومستعدة للتعاون مع أعداء قشتالة في كل الأوقات. ولعبت عوامل سياسية ودينية وتاريخية واقتصادية مختلفة دورها المستمر في إذكاء الريبة بين الأندلسيين والإسبان، فلم يشعر الأندلسيون بالأمان بين القشتاليين، ولم يشعر القشتاليون بالأمان إن وجد الأندلسيون بينهم، ولم تسمح الحكومة والكنيسة ومحاكم التحقيق للفئتين النسيان والتناسي فعملت دائماً على إذكاء الشكوك وإحياء المخاوف وشحن الكره والعداوة.

ومع مرور الزمن تراكمت المراسيم والقوانين والقيود ولوائح الوشاية التي سعت في جملتها إلى فصل الأندلسي عن دينه وتاريخه وأهله ودفعه في اتجاه الكاثوليكية. وقاوم الجيل الأول قدر استطاعته فيما وجد أبناء الجيلين الثاني والثالث أنفسهم وسط عالم غير الذي عرفه آباؤهم فجهلوا الكتابة بالعربية وعجُمت ألسنتهم واختلطت عاداتهم، وسادت الأميّة وتفشّى المرض بعدما حرمتهم السلطة من المرافق العامة التي اعتادوا عليها، وأجبرتهم على التعايش مع القذارة. ومنعت السلطات معظم الأندلسيين في المنافي من مزاولة التجارة أو الاشتغال بالمهن فصاروا بغالين وحمّارين وفلاحين بالسخرة أو بأجر رمزي في مزارع القشاتلة وغيرها من وضيع المهن، وحظرت عليهم حمل السلاح (كان آنذاك رمزاً للأحرار فلم يكن ممنوعاً إلا على العبيد واليهود)، ورأت في أبسط المظاهر الأندلسية مروقاً ومعارضة للسلطة والكنيسة.

ووصلت القيود في بعض الحالات إلى حدود لا يمكن احتمالها فكان الأندلسي حين ينفرد بنفسه يتوجه إلى خالقه ويناشده المساعدة على التغلب على مخاوفه ويأسه، وصار البعض يعتقد أن الموت مسلماً كفيل وحده بتأمين الخلاص النهائي. لكن حتى هذا لم يعد ممكناً اعتباراً من عام ١٥٩١. فقبل هذا التاريخ كانت للأندلسيين مقابر خاصة لكن السلطات منعت الأندلسيين من دفن موتاهم فيها وخصصت لهم مناطق في الساحات المجاورة للكنائس التي كانت مساجد في الماضي شرط الموافقة على دفن المسيحيين فيها. ورضخ الأندلسيون لهذا الشرط على مضض لكن السلطات عادت وفرضت عليهم دفن موتاهم داخل الكنيسة نفسها. ولم يحتمل الأندلسيون هذا الوضع فعرضوا على فيليب الثالث دفع مبلغ ٣٠ ألف دوقة ذهبية لقاء السماح لهم بدفن موتاهم في مكان آخر حتى لو كان في المزابل لكنه رفض رفضاً قاطعاً.

ويلخص أحد الأندلسيين وضع أمّته بالقول: «كنا مضطرين أن نظهر لهم ما كانوا يرغبون منا إظهاره، وما عدا ذلك كانوا يسوقوننا إلى محاكم التحقيق لاتباعنا الحقيقة. لقد حرمونا من الحياة والأملاك والأبناء، وزجوا بنّا في سجون مظلمة لأتفه الأسباب. ونظراً إلى سوء أفكارهم كانوا يبقوننا هناك سنين عدّة فيما يستولون على أملاكنا التي صادروها ويستغلوننا، ثم يقولون إن لذلك الفعل مبرراً، ويخفون وراء ذلك أفكارهم السيئة وسريرتهم الضالة. أمّا أطفالنا فإنهم عندما يصبحون يافعين يربونهم على شاكلتهم ويصبحون مرتدين، وإذا كبروا يسعون إلى الهروب. وإضافة إلى ذلك كان حكام محاكم التحقيق يفتشون عن كل الوسائل للقضاء نهائياً على هذه الأمّة».[٨]

وكانت هذه الوسائل بلا نهاية، وكانت العقوبات تراكمية، وكانت تتصاعد في شدّتها مع الزمن وتشمل الأحياء والأموات على سواء إذ توجد أمثلة كثيرة على نبش قبر من يُتهم بعد موته بالارتداد وجمع عظامه في كيس وإحراقها إلى جانب الأحياء في الاحتفالات التي كانت تجري بين وقت وآخر في المدن الإسبانية. كما توجد أمثلة عدّة على شمول العقاب أهل المتهم الذين تحرمهم محاكم التحقيق من التمتع بالحقوق المدنية أو تجبرهم على ارتداء لباس العار (Sanbenito) مدداً طويلة.[٩] وفي بعض الحالات كان الدير نفسه يُستخدم كسجن. ونحو نهاية القرن السادس عشر لم يعد الإرتداد وحده سبباً للحكم على المتهم أو المتهمة بالحرق إذ باتت

محاولة الهروب من إسبانيا إلى العدوة أو فرنسا جريمة نهايتها الحرق، بل أن المؤرخ الكبير لورنتي يُعلمنا أن الحرق كان أيضاً عقوبة من يقرأ الكتب العربية.[١٠] وتبدّلت حظوظ فيليب الثاني في آخر أيامه فأنزل به الفرنسيون والهولنديون والإنكليز هزائم ماحقة وساء حال الإسبان في أوروبة ودارت عليهم الدوائر فاهتزت ثقتهم بأنفسهم وبحثوا عن سبب اخفاقاتهم فيمن حولهم وبرّأوا أنفسهم من جرائر ما أصابهم وحمّلوها للأندلسيين وكانوا يعتقدون أن الله للكاثوليك فقط مثل الجنّة فصاروا يقولون إن هذه الهزائم عقاب من الله على وجود «الكفار» الأندلسيين بينهم. وهكذا تحوّل الأندلسيون إلى كبش فداء جاهز، وتأججت العداوة وتمحور الرأي العام ضدهم وتصلّب فرمت الحكومة من وراء تغريب الأندلسيين إلى تحقيق نصر عزيز لم تتمكن من تحقيقه في أي من صراعاتها الخارجية الكبيرة.

٣)– ١٠٠ عام من المواجهة

ربما لا يوجد وصف لصمود الأندلسيين أكثر من ١٠٠ عام في وجه واحدة من أعتى الممالك التي عرفها القرن السادس عشر، وفي وجه أكبر جهاز مخابرات ديني عرفه البشر، وواحد من أعدى شعوب الأرض سوى بأنه كان صموداً خارقاً. ويرافق هذا الوصف تساؤل دائم عن الطريقة التي استطاع بها الأندلسيون في وطنهم المُحتل التمسّك بدينهم وعروبتهم بعد أكثر من ١٠٠ عام من الحرق والتعذيب والقتل والاعدامات والتجويع والنفي والنهب المنظّم، وكيف تمكّنوا من الاستمرار وسط مجتمع كان بين الجنود والكهنوتيين فيه جمهور من الوشاة الذين ترصّدوا في جيرانهم الأندلسيين كل حركة أو كلمة فرأوا فيها إما خيانة لملك إسبانيا أو عداوة للمجتمع الإسباني أو طعناً في «ديننا الكاثوليكي الطاهر». إن خروج أندلسية أو أندلسي مسلم واحد من إسبانيا بعد أكثر من ١٠٠ عام من الاضطهاد أمر يبعث على الدهشة فكيف بخروج مئات الألوف اعتباراً من عام ١٦٠٩؟ وبماذا يمكن أن نصف بعض الأندلسيين الذين لم يكفهم جهاداً المحافظة على دينهم وعروبتهم فنجدهم يحاولون إقناع بعض المسيحيين الإسبان بدخول الإسلام؟

ونستطيع العثور في كتب التاريخ الإسبانية ووثائق محاكم التحقيق على بعض الأسباب الظاهرة لذلك الصمود لكن الأسباب الحقيقية تكمن في قدرة الأندلسيين على الغوص في أعماقهم واغتراف الشجاعة التي مكنتهم من الصمود في البيئة العدوانية التي كانوا يعيشون فيها. وكان الإسبان يعرفون مكمن تلك القوة ومع ذلك لم يستطيعوا بعد ١٠٠ عام من المحاولة كسرها لأنهم لم يتمكنوا من اختراق عقولهم ولا قلوبهم. هذا لا يتمّ عادة إلا بالرحمة والتفهّم لكن إسبانيا ذلك الوقت لم تكن تتمتع بالقدر الكافي من الشعورين. ولا نستطيع بعد ٤٠٠ سنة من مرور تلك الأحداث أن نفهم تماماً ماذا كان يدور في خلد الأندلسيين لكن نستطيع أن نخمّن ونتصوّر المآسي التي تعرضوا لها خلال تلك الفترة المظلمة من تاريخ الأندلسيين في إسبانيا، بل من تاريخ الإسلام.

وواجه الأندلسيون مشاكل عمّت الجميع ومشاكل أكثر خصوصية انطبقت على تجمّع دون غيره، ووُجدت آلاف الحالات التي تطلّبت معالجة خاصة. وكانت المشكلة الأكبر بقاء التجمّعات الأندلسية على اتصال مع بعضها لتبادل آخر الأخبار ونقل الكتب الدينية والمساعدة على حل المشاكل التي واجهت بعض التجمّعات. ويبدو من المعلومات المتوافرة عن تلك الفترة أن الأندلسيين حلّوا هذه المشكلة من خلال إقامة عدد من أقنية الاتصالات التي كانت تتم مباشرة عن طريق إيفاد مبعوثين عن الأندلسيين، خصوصاً في بلنسية وأرغون، إلى فرنسا طلباً للمساعدة، أو إلى العثمانيين. ولعب البغالون والناشطون في النقل والتجارة بين الممالك الإسبانية داخل آيبرية دوراً ملحوظاً في تبادل المعلومات والأخبار بين التجمعات الأندلسية، وكان هؤلاء ينقلون الكتب الدينية المخبّأة في البضائع من مكان إلى آخر حسب الحاجة، أو يحملون المساعدات العينية والمالية إلى الأندلسيين المحتاجين.

وفي حالات أخرى كان الأندلسيون يؤون إخوانهم المطاردين من طرف الدولة أو محاكم التحقيق، أو الأندلسيين الفارين من منافيهم ريثما يرتّبون تهريبهم في القوارب التي كانت تنطلق ليلاً من جنوب الأندلس في اتجاه المغرب أو الجزائر، أو عبر الجبال في اتجاه فرنسا. وربما بقي على مناطق الحدود بعض هؤلاء، وربما انتقلوا

بعد ذلك الى الساحل المغاربي أو الأراضي التي تسيطر عليها الدولة العثمانية. وبما أن عقوبة معظم تلك النشاطات كانت الحرق أو الشنق أو الشغل سخرة في السفن مدى الحياة، فقد اقتضى إتمامها سرّية تامة. وكان على المكلفين إداء هذه المهمات توقّع اعتقالهم في أي مرحلة من مراحل تنفيذ مهامهم وبالتالي كتمان معرفتهم بمصادر كتبهم أو مهامهم في كل الظروف.

وكانت أوضاع الأندلسيين في إسبانيا شديدة التفاوت ففي بلنسية كانوا يُعرفون باسم «أمة المسيحيين الجدد من الأندلسيين في مملكة بلنسية».[١١] وكانت ممارسات هؤلاء أبعد ما تكون عن المسيحية إذ كانت لهم مجموعة من المساجد السريّة ضمن منظمة عُرفت باسم «رابطة مساجد بلنسية». وخارج بلنسيةعملت أعداد كبيرة منهم في الأرياف فلاحين وعنّابين لحسابهم الخاص أو لدى النبلاء والمتنفذين والكنيسة، وهؤلاء سيطروا على معظم الأراضي الزراعية في إسبانيا. وساعد الأندلسيين على استمرار قسم كبير من تنظيماتهم عدم وجود سلاطين وملوك وأمراء كبار يمكن أن يؤدي اكتشافهم إلى إلحاق ضرر كبير بالتنظيمات أو يمكن ان تغريهم السلطات أو تقسرهم على بيع جماعتهم. واستعاض الأندلسيون عن هذه الهرميّات السياسية التقليدية بمجالس صغيرة تمثّل مناطق معينة، مع وجود ضباط ارتباط بين هذه المجالس لتقرير القضايا الكبيرة. وكان من بين أهم هذه القضايا الحصول على المساعدة العسكرية والمالية الخارجية لمساعدتهم على التصدي لسياسات فيليب الثاني ومحاكم التحقيق، لذا كانت هناك سفارات كثيرة بين هذه المجالس من جهة وبين الفرنسيين والبروتستانت والعثمانيين. وتمكنت السلطات من كشف جانب من هذه النشاطات وأقر بعض من عذّبتهم محاكم التحقيق بوجود الاتصالات وطبيعتها لكن نطاق الضرر بالتنظيمات الأندلسية بقي محدوداً.

وساهمت هجرة الإسبان وأعداد من الأندلسيين إلى المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد والحروب شبه الدائمة التي شنّها فيليب الثاني على أعدائه في كل مكان في خفض عدد سكان بعض المناطق الإسبانية فبدأت مجموعات من الأندلسيين هجر الأرياف إلى المدن القريبة، وقامت أحياء اقتصر سكانها على الأندلسيين. وكان قسم كبير من هؤلاء يعيش على خط الفقر أو دونه، وتطلبت مساعدتهم جهوداً خاصة لأسباب عدّة منها توزعهم في بلد شاسع مثل إسبانيا.

٣- تغريب الأندلسيين من اسبانيا: الاعتبارات الإسبانية

١)- ١٠٠ عام من الجهد الضائع

«كيف يأمل المرء أن يهدي إلى طريق السيد المسيح شعباً عنيداً قاوم التبشير للنصرانية والاضطهاد قرناً كاملاً، ولا يزال إخلاصه لقرآنه كما إخلاص العرب في المغرب؟ لقد كان الرهبان الذين انيطت بهم مهمة تعليم الموريسكيين مبادئ الكاثوليكية يعرفون تمام المعرفة أن هؤلاء، وإن مارسوا طقوس النصرانية، فإن هذه الممارسة لم تكن أكثر من مراءاة سببها الخوف من محاكم التحقيق. فمثلاً حين يكون عليهم الذهاب إلى الكنيسة في عيد الفصح للاعتراف، فإنهم كانوا يقدّمون أنفسهم بطريقة عالية الانتظام، لكنهم لا يعترفون بارتكاب أي ذنوب. ولم يُعرف عنهم أنهم توجهوا إلى القساوسة بطلب المساعدة حين يمرض أحدهم خوفاً من حضور القساوسة بصفتهم الرسمية، لذا تستّروا على مرضاهم وتعرض الجميع «إلى موت مفاجئ» كما كانت الأسرة تدعي وهي تمكر. أضف إلى ذلك أن عددهم لم ينقص مذ طردهم فيليب الثاني من مملكة غرناطة (عام ١٥٦٩)، بل حدث العكس وازدادوا عدداً لأنهم امتنعوا عن اللحاق بالجيش أو حتى الانخراط في خدمة الكنيسة، وأكثروا من إنجاب الأطفال وربوهم على كره المسيحية».[١٢]

هذا، باختصار، هو رأي الإسبان في الأندلسيين. وهذه، باختصار، قصة الإسبان مع الأندلسيين: فيها انتصارات كثيرة لكن فيها إخفاقات كثيرة أيضاً وجهد ضائع صرفته الكنيسة ومحاكم التحقيق على كتلكة الأندلسيين. ولا بدّ أن ملايين الإسبان كانوا يشعرون بالحيرة من نجاحهم الهائل في المستعمرات في العالم الجديد حيث نصّروا الملايين، ومن إخفاقهم الهائل في إسبانيا. فبعد أكثر من ١٠٠ عام من التبشير القسري ظل الأندلسيون «لا يأخذون الماء المقدس إذا دخلوا الكنيسة، ولا يرسمون علامة الصليب. لقد كانوا مثل الشيطان

وأشد أعداء المسيح . . . وكنا فرضنا عليهم الخوف، الا أننا نلاحظ قلة إيمانهم لحظة رفع القربان المقدس، إذ يقطّبون جباههم وينزلون رؤوسهم ويحولون وجوههم بعيداً، ويدفعون أولادهم الى البكاء ليزيدوا القاعة ضوضاء. بل هناك حادث خارق للعادة تمثّل في حمل أحدهم السبحة وهو في الكنيسة!».[١٣]

إن دراسة التاريخ تقود أحياناً إلى الاستنتاج بأن الأمم المهزومة توجه نقمتها إلى الداخل لخلق التوازن النفساني المطلوب للتغلّب على روح الهزيمة، أو تغرق في الرذيلة وتمضي في طريق الانحلال الخلقي، أو تلجأ إلى موجة من الورع والتعبد وتعميق الحس الديني المشوب بالمهانة القومية. وهذا ما حدث في إسبانيا بعد هزائم نهاية القرن السادس عشر حين بدأت الكنيسة تبشّر بدعوة شاملة للخلاص من الذنوب والعودة إلى الكنيسة، وتنظر إلى الهزائم على أنها إنذار بنكبات أفدح وعقاب على ابتعاد الناس عن دينهم. وخرجت الكنيسة بعد الهزائم لتقول إن أسباب هذه الهزائم وجود عناصر في قشتالة تدعي النصرانية جهراً وتضمر الإسلام. وتقول إن طرد اليهودية من آيبرية لم يكتمل بعد، لأن أعداداً منهم بقيت في البرتغال التي ضمها فيليب الثاني إلى ممالكه بالقوة عام ١٥٨٠، وإن وجود مثل هؤلاء سبب الغضب الإلهي على قشتالة. وبارتفاع عدد المصائب التي تعرضت لها البلاد في آخر ذلك القرن، مثل الأزمات الاقتصادية وانتشار وباء الطاعون، كانت الكنيسة تضم إلى صفوفها مؤيدين جددا نادوا بنفي الأندلسيين إذا أريد لإسبانيا أن تحقق النصر الذي تريده لنفسها وللكنيسة. وتضافرت جهود رجال الدين والكتّاب لتأليب الرأي العام على الأندلسيين. فقبل بدء تغريب الأندلسيين أصدر خوان دي ربيره Juan de Ribera رئيس أساقفة بلنسية (١٥٣٣-١٦١١) أوامر إلى مطرانيته بوقف المناولة للأندلسيين بعد تقاطر الشكاوى من سوء تعاملهم مع الطقوس الكنسيّة. ودعم الكتّاب هذا الموقف فسجّلوا قبل تغريب الأندلسيين وبعده انتقاداتهم للأندلسيين ووصفوهم بأنهم ثعابين وضفادع وذئاب وعقارب وحيوانات سامة.

واكتشف هؤلاء أن الأندلسيين لم يصبحوا نصارى في حياتهم إذ تحدثوا عن الكاثوليكية لكنهم ظلوا مسلمين ممتازين. ويلخص بارونات القصة كلّها بالقول: «لم يكن لدى الموريسكيين أي رغبة في أن يصبحوا مسيحيين، فكل ما يتمنونه هو النجاة من محاكم التحقيق».[١٤] إلا أن المشكلة لم تكن دينية فقط إذ حسد القشاتلة الأندلسيين دائماً على صنعتهم وجدّهم في العمل، واستكثروا أن يتمكن هؤلاء من جمع المال بعد كل الضغوط التي يتعرضون لها. ونجد مثالاً جيداً على هذا الموقف من عرض الآتي: «إن انتاجيتهم (أي الأندلسيين) عالية جداً. وعلى رغم مجيئهم الى قشتالة (من غرناطة بعد نفيهم عام ١٥٦٩) قبل عشر سنوات فقط من دون أن يملكوا شبراً من الارض، وعلى رغم عقم تلك السنين فانهم أصبحوا متنفذين، وصار كثيرون اغنياء إلى درجة انه يمكن ان نتوقع بعد ٢٠ سنة من الآن أن يعمل المواطنون الأصليون في خدمتهم».[١٥]

٢)- الحالة العامة

كان حظ الأندلسيين أن تحمّلهم قشتالة أسباب إخفاقها على سائر الجبهات لأنهم كانوا في متناول اليد، ولأنهم كانوا أقلية تتمتع بنفوذ سياسي ضئيل جداً، ولأنهم كانوا عموماً فقراء عاجزين عن مد الحكومة تلو الأخرى بالمال الذي تريده، ولأنهم أصروا على شخصيتهم المستقلة في وجه كل الضغوط التي استمرت أكثر من قرن من الزمن. وعندما كان الأمر يتعلق بالأندلسيين فان التاريخ القشتالي كان يعيد نفسه، فكانت المخاوف القومية والدينية والاجتماعية تجد متنفسها في اضطهاد الأندلسيين. وكانت تطورات آخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر تذكر كثيراً بوضع قشتالة في آخر سبعينات القرن السادس عشر ذلك أن متاعب قشتالة مع الهولنديين والإنكليز لم تنته، وأصبحت أرغون ثانية من أصعب الممالك التابعة لقشتالة، وتوج ذلك بإعلان الثورة هناك سنتي ١٥٩١ و١٥٩٢، ولم يكن هناك حل سوى تسيير الجيوش إلى أرغون وقمع الثورة في مدينة سرقسطة. وبما أن العمليات العسكرية كانت مستمرة مع الأتراك والساحل المغربي كان من الطبيعي أن تُثار بين الحين والآخر مسألة مساعدة الأندلسيين الجدد للعثمانيين أو المغاربة ضد إسبانيا.

وفي تلك الحقبة كانت المضاعفات النفسانية للهزائم التي حاقت بإسبانيا تفوق بأضعاف التأثير الفعلي لتلك الهزائم. ووجد القشتاليون أن الحروب التي قادتهم إلى القمة تقودهم ثانية إلى الهاوية، وربما لم يكن بين جميع الممالك التي خضعت لقشتالة مملكة تعرضت لأزمات سياسية واقتصادية شبه مستمرة مثل قشتالة ذاتها. وبينما

تحسّن وضع بعض تلك الممالك الجديدة استمرت إسبانيا تعاني من مشاكلها القديمة. وكان عهدا كارلوس الخامس وفيليب الثاني مليئين بالانتصارات الهائلة والهزائم الهائلة، لكن الأب وابنه تمكّنا من المحافظة على الإمبراطورية وتوسيع رقعتها عند توافر الظروف المناسبة.

وقبل أن يموت فيليب الثاني أبلغ إلى النبلاء أن كل ما يخشاه هو أن يصبح ابنه فيليب الثالث محكوماً لا حاكماً. وتحقق توقّع فيليب الثاني بعد موته إذ راح دوق ليرما يدير شؤون البلاد، فيما تفرّغ فيليب الثالث للاستمتاع بالدنيا والجلوس أمام دييغو فلايثكويث (فيلاسكويز) لرسمه واقتناء اللوحات الفنية والمفروشات الكلاسيكية من إيطاليا وبناء القصور الفاخرة. وكانت متاعب إسبانيا وقتها أعمق من أن يحلّها دوق ليرما (أعظم لص في إسبانيا[١٦]) فاستمر الإفلاس والتقهقر أمام البروتستانت فطلب الصلح من الإنكليز عام ١٠٦٤، ثم توصّل مع الهولنديين البروتستانت إلى اتفاق مهين نص على التزام الطرفين هدنة تستمر ١٢ سنة اعتباراً من التاسع من نيسان (إبريل) عام ١٦٠٩، ورأى الإسبان في الاتفاقين خضوعا كاثوليكيا من حامية الكاثوليكية للبروتستانت.

وكانت هذه التطورات كافية لتفقد قشتالة توازنها الذي قام على تحقيق الانتصار تلو الآخر، وكانت دافعاً للتوقف والتفكير في حال البلاد. ولم تستطع إسبانيا النهوض لمقارعة خصومها الخارجيين فانكفأت إلى ذاتها وساد التفكير بقدرية الأحداث وعبث الأيام كما صوره بعض أهم أدباء إسبانيا. هنا ظهرت شخصية عثمان الفراش[١٧] المتنقل دائماً من مكان إلى آخر وهو يحاول أن يعيش ليومه من دون الحاجة لمعرفة ألم التفكير في الغد. وهنا ظهرت شخصية دون كيخوتي دي لا مانشا عام ١٦٠٥ كما رسمها سيرفانتس - عجوز، مثل صانعها، يحارب العمالقة وطواحين الهواء وسط جو من الفروسية الخيالية والأعداء الخياليين، وبطل في زمن لم يعد يحتمل بطولة ولا أبطالاً. وكانت تلك الفترة فترة تكشف الحقيقة. الحقيقة بأن إسبانيا كانت فقيرة على رغم الفضة التي تتدفق عليها من العالم الجديد؛ ضعيفة على رغم اتساع ممالكها الهائلة؛ أول من يحس بالكوارث النازلة بها وآخر من يستمتع بالمجد الذي بحثت عنه؛ أول من زرع وآخر من حصد. ومن خلال بحث قشتالة عن ذاتها المضطربة في بداية القرن السابع عشر اتضح للكثيرين مدى تدنّي الروح المعنوية وبرزت حاجة هائلة لتحقيق انتصار ما. وتصور كثيرون أن نفي الأندلسيين سيكون الانتصار الذي يعيد إليهم الشعور بالعظمة، ويرفع معنوياتهم الهابطة. وهكذا سعت إسبانيا إلى تحقيق انتصار داخلي حين عجزت عن تحقيقه في الخارج، وكان الرأي العام الإسباني أكثر من مهيأ لتحقيق هذا الانتصار وتغريب الأندلسيين.

وخلال فترة الإعداد لتغريب الأندلسيين ارتفعت أصوات تنبه إلى خطورة مثل هذه الخطوة لكنها كانت أصواتاً قليلة وكانت المشاعر متضاربة: «وقف البعض موقف إدانة لهذه القسوة المتطرفة التي كانت تبعد شعباً بأكمله عن موطنه الأصلي. لكن آخرين امتدحوا هذا العمل الذي لم يُظهر فقط تقوى ملكهم الكاثوليكي (فيليب الثالث) بل خلّص إسبانيا من هؤلاء النصارى المزيفين الذين كان أجدادهم سادة إسبانيا قروناً عدّة بينما استمروا في تعاملهم الخفي مع الأفارقة والأتراك والأعداء الآخرين للملكيّة. وكان منتقدو مرسوم فيليب الثالث ومستشاروه يقولون إن الإسبان استمروا قرونا عدة في السماح للأندلسيين العيش بينهم في أرض استعادوها، وممارسة دينهم. وكانوا يقولون أيضاً إن الإسبان سمحوا للأندلسيين بإستغلال الأرض والقيام بأعمال مختلفة لم يعد النصارى يعتادونها، لأن الإسبان كانوا شغوفين بشن الحرب. أولئك الذين تبنوا هذا الاتجاه كانوا يعتقدون أنه من غير الصواب إنزال عقاب شامل يمكن أن تخرج الدولة بعده أكثر ضعفاً وأقل صلاحاً، ما لم يكن لمثل هذا العقاب دافع قوي. لكن الذين أيّدوا المرسوم (مرسوم التغريب) كانوا أكثر عدداً، واعتبروا القرار بطولياً وصائباً. وأقرّ هؤلاء بالشرور التي يمكن أن تلحق بإسبانيا نتيجة القرار، لكنهم كانوا يرون في هذه الشرور ثمناً لا يمكن مقارنته بالأذى الذي يتهددهم إذا استمر بقاء الموريسكيين في المملكة».[١٨]

هل كان وجود الأندلسيين في إسبانيا سيهدد وجود إسبانيا فعلاً؟ الجواب تأكيداً هو نعم. هل كان الأندلسيون مستعدين للتعاون حتى مع الشيطان لرفع كابوس الاضطهاد عن صدورهم؟ الجواب لا بدّ أن يكون نعم أيضاً. لماذا؟ لأن إسبانيا الديمقراطية الحديثة فقط وجدت الحل لكل الأقليات في آيبرية وتوابعها عن طريق منحها الحكم الذاتي وأنهت بذلك معظم مشاكلها القديمة مع الباسك والنافاريين والقطلان. لكن هذا لم يكن ممكناً في

القرن السابع عشر. كان على إسبانيا وقتها التمكّن من تغيير نفسها قبل أن تستطيع السماح للأندلسيين بالحياة والاستمرار وتحسين أوضاعهم الإنسانية والمعيشية، والتوقف عن إحراق الأندلسيات والأندلسيين ومصادرة أموالهم وأملاكهم وحرياتهم.

وبدت إسبانيا في لحظات قليلة كأنها يمكن أن تترك الأندلسيين يمارسون الحد الأدنى من الحريات الدينية والاجتماعية والاقتصادية، لكن المخاوف الداخلية التي أججها التعصب الديني والقومي، والمخاوف الخارجية التي أثارتها الهزائم العسكرية المتلاحقة لم تسمح لتلك اللحظات أن تتحول إلى وقت مجد. ولم تعد إسبانيا قادرة على الوصول إلى هذا الحل بعد ذلك لأن الكاثوليك الفرنسيين والبروتستانت الإنكليز والهولنديين كانوا بدأوا الحروب الأخيرة لتدمير قوة إسبانيا، وكانت ثورة كبيرة أخرى يشعلها الأندلسيون في إسبانيا ستؤدي إلى قلب موازين القوى. وفي النهاية ظل معظم الأندلسيين عرباً ومسلمين، لكن بين الكاثوليكية والبروتستانتية، كان الأندلسيون سيختارون البروتستانتية ليس لقناعتهم بها، بل لأنها كانت ستساعدهم على تدمير إسبانيا الكاثوليكية التي سعت إلى تدميرهم بكل الوسائل.

وفي عام ١٥٩٩ زار فيليب الثالث بلنسية لعقد قرانه إلى مرغريت النمسوية وأثيرت خلال الأفراح مسألة الأندلسيين فأصدر مرسوماً ملكيّاً بالعفو عنهم إذا اعترفوا للكنيسة بذنوبهم وخطاياهم وأصلحوا أمورهم وطلبوا المغفرة والصفح. وكتب فيليب رسالة بهذا المعنى إلى خوان دي ربيره رئيس أساقفة بلنسية أمره فيها بمباشرة تعميد من لم يتعمد بعد من الأندلسيين ومعاملتهم بالحسنى لكسب تعاونهم.[١٩] وفي الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) من العام نفسه أصدر البابا بولس الخامس إرادة منحت الأندلسيين عفواً عاماً عن كل خطاياهم لمدة سنة واحدة. وانقضت المهلة من دون أن يتقدم الأندلسيون للاعتراف بخطاياهم فتحرّكت محاكم التحقيق وعمّدت عدداً من الأندلسيين بالقوة. واحتج الأندلسيون على هذا الإجراء فردّت الحكومة باتهامهم بالتآمر مع الفرنسيين وتعهدهم للمغاربيين بتوفير ٢٠٠ ألف مقاتل لاحتلال بلنسية إذا تمكن هؤلاء من إرسال ٢٠,٠٠٠ مقاتل فقط، ثم أعدمت عدداً منهم شنقاً. وخلال السنوات الثماني التي اعقبت زيارة فيليب الثالث الى بلنسية استمرت مقاومة الأندلسيين للتعميد، وبدأ دوق ليرما التفكير بتغريبهم ما لم تنصلح حالهم نهائياً عاكساً رأيه هذا في قول مشهور هو: «لن تصبح ممالك إسبانيا نقيّة طاهرة إلا بإقصاء الموريسكيين عنها».[٢٠]

وفي صباح الإثنين الثاني والعشرين من أيلول ١٦٠٩ الموافق للثاني من شوال سنة ٤٨٩ خرج المنادون إلى الأندلسيين وقرأوا المرسوم الملكي الآتي:

«١ – على سائر الموريسكيين في المملكة رجالاً ونساءً وأطفالاً أينما كانوا أن يسارعوا خلال ثلاثة أيام من صدور هذا المرسوم إلى إخلاء منازلهم والاتجاه بإمرة مفوض الدولة المسؤول عنه، وذلك للإبحار الى المغرب على متن المراكب والسفن التي استعارتها الدولة لهذا الغرض، ومنصاعين لأوامر المفوض، آخذين معهم من ممتلكاتهم المنقولة ما يمكن حمله على ظهورهم. وتحظّر الاساءة إليهم أو إزعاجهم أثناء انتقالهم سواء بالقول أو الفعل، ويُكفل لهم تأمين طعامهم خلال مدة الإبحار. وكل من يتخلّف عن تنفيذ هذا المرسوم يعرض نفسه للهلاك المحقق.

٢ – يحق لأي إسباني صادف موريسكياً خارج منطقته أو ضالاً في الطريق بعد الأيام الثلاثة المحددة أن يستولي على ما معه. وإن أبدى الموريسكي أي مقاومة للإسباني أن يقتله أو أن يسلمه إلى أقرب مركز حكومي لكي تأخذ العدالة مجراها.

٣ –على الموريسكيين، بعد الإطلاع على نص هذا المرسوم، البقاء حيث هم إلى أن يحضر مفوض الدولة الخاص بهم وينقلهم إلى الموانئ المحددة للإبحار الى المغرب، ومن يخالف ذلك يعرّض نفسه إلى الهلاك.

٤ – يُحكم بالموت على أي موريسكي أخفى شيئا من أمواله أو ممتلكاته مما يعجز عن حمله، أو أحرق أو أتلف بيتاً أو مزرعة أو حاكورة أو شجرة أو أي ممتلكات. وتُنزل العقوبة ذاتها بأي جار تكتّم على مثل هذه الاعمال لأن المرسوم يوجب على الموريسكيين إبقاء الممتلكات التي يعجزون عن حملها فتؤول الى صاحب الاقطاعية.

٥ – لست أسر موريسكية فقط البقاء في كل بلدة تضم ١٠٠ أسرة مسيحية شرط ان تتألف هذه الأسر من كبار

السن، وألا يكون ابناؤهم متزوجين، وأن يكونوا تحت رعاية الابوين. ويختار هذه الأسر أصحاب الاقطاعيات من بين أكثر السكان الموريسكيين تمسكاً بالمسيحية بهدف تعليم السكان الجدد زراعة قصب السكر وصناعة السكر وتكريره وإتقان توضيب مساكب الرز وسقيه وحصاده وسقاية الارض عامة وصيانة البيوت.

٧ – يُحظّر على المسيحيين القدماء إخفاء أي موريسكي أو مساعدته أو عدم الابلاغ عنه ان تغيّب، ويُحكم على من يُقدم على مثل هذا العمل بالشغل ست سنوات على القواديس أو أي أحكام نُقرّها.

٨ – ليعلم كل الموريسكيين أن رغبة الملك هي تهجيرهم من مملكته وليس مضايقتهم، حتى يصلوا الى الشواطئ المغربيّة بأمان. لذا يُسمح لعشرة موريسكيين في كل رحلة العودة على المراكب التي اقلتهم لابلاغ إخوانهم بسلامة الوصول وحسن المعاملة. ويُكتب إلى المفوضين والمسؤولين عن المراكب بذلك فلا يُسمح لاي جندي أو بحار بالاساءة إلى المهجرين قولا أو فعلاً.

٩ – للأطفال الموريسكيين الذين تقل أعمارهم أو أعمارهن عن الرابعة البقاء في البلاد شرط موافقة الأبوين أو الوصي على ذلك.

١٠ – يُسمح لاطفال الموريسكيين ممن تقل أعمارهم أو أعمارهن عن ست سنوات وينحدرون من آباء مسيحيين قدماء كبار السن البقاء مع أمهاتهم. كما يُسمح لأطفال الموريسكيين المنحدرين من أمهات مسيحيات قديمات البقاء في البلاد مع أمهاتهم إذا كانت أعمارهم أو أعمارهن تقل عن السادسة فيما يُطرد الاباء.

١١ – يُسمح للموريسكيين المقيمين بين النصارى القدماء البقاء في المملكة إن لم يكونوا انتسبوا إلى رابطة الجوامع الموريسكية قبل سنتين من صدور هذا المرسوم.

١٢ – يُسمح ببقاء الموريسكيين الذين لُقنوا أسرار الكنيسة وعُمدوا بمعرفة رئيس الدير بناء على توصيات المُعرّفين (عمال محاكم التحقيق) القاطنين في مناطقهم.

١٣ – يوافق صاحب الجلالة على أن يتوجه أي موريسكي إلى أي مملكة أخرى يرغب الذهاب اليها شرط ألا يعبر في طريقه مقاطعات اسبانية، وأن يتمّ ذلك ضمن المدة التي حددها المرسوم.

هذه هي رغبة صاحب الجلالة، ومن لا ينفذ ما جاء في هذا المرسوم الملكي يعرض نفسه إلى أقصى العقوبات».

وهذا هو المرسوم الذي يمكن اعتباره النهاية الرسمية لمبدأ التعايش في آيبريا.

الهوامش

[1] Tanto monta, monta tanto, Isabella y Fernando.

٢ «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، لوي كارديك، ترجمة عبد الجليل التميمي، (زغوان، ١٩٨٣)، ص ٤١.

[3] Janer, Florencio. *Condicion social de los Moriscos de Espana: causa de su expulsion y consecurencias que esta produjo en el orden economico y politico,* (Madrid 1857), P 144.
والجملة هذه نقلها المؤلف من كتاب وضعه أنطونيو في فوينمايور باسم : Vida y bechos de Pio V

[٤] من مخطوطة محفوظة في اكاديمية التاريخ الملكية الإسبانية جاءت في كتاب «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ٢٨، أوردناها هنا بصياغة مختلفة قليلاً.

[٥] أعلاه ص ٣٩.

[٦] Janer, Florencio. *Condicion social...* p 270. وما ورد مأخوذ من رسالة وجهها المجلس الاستشاري (مجلس الأعيان) في غرناطة إلى الملك فيليب الثاني عام ١٥٨٢. ونلاحظ من هذا الاقتطاف أن الأندلسيين بدأوا يتجنّبون شراء العقارات بعدما صادرتها

محاكم التحقيق والحكومة وفضلوا الاحتفاظ بالسيولة.

[٧] كانت الحكومة تحصّل آنذاك ثلاثة أنواع من المداخيل الضرائبية هي ضريبة الجهاد ضد المسلمين (*Cruzada*) المتأتية من تسويق صكوك الغفران التي يُصدرها البابا، وضريبة العُشر على أرباح بيع المنتوجات (*Subsidio*)، وضريبة العُشر المستوفاة من الكنائس (*Excusado*). وكانت حصيلة الضريبة الأولى المعمول بها في صورة متقطعة منذ حرب غرناطة في عهد إيزابيلا نحو ٩١٢ ألف دوقة ذهبية سنوياً.

[٨] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ١٠٤-١٠٥.

[٩] ويكون عادة رداء لا يعلوه شيء مرسوم عليه صليبان أصفران من الإمام والخلف.

[١٠] أعلاه، ص ١٥٣.

[11] La nacion de los Cristianos Nuevos de Moros del Reino de Valencia

[١٢] Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, p 19. والنص المشار اليه من وصف لرحال فرنسي هو Antoine de Brunel زار إسبانيا سنة ١٦٥٥ وضمّن مشاهداته رسالة أسماها *Voyage d`Espagne*. والنص الأصلي للرسالة في: Revue Hispaniqe, Vol. XXX, (1914), PP 119-476.

[١٣] Guadalajara, Marcos De & Xavier. *Memorable expulsion y justiismo destierro de los Moriscos de Espana*, Pamplona, Nicolas de Assiayn, 1613, folio 159.

[١٤] Baronat y Barrachina. *Los Moriscos*... tome I, p 381

[١٥] Janer, Florencio. *Condicion social*... p 272

[16] Kinder, Herman & Hilgemann, Werner. *Atlas of World History*, Vol. 1, (London) p 243.

[١٧] الشخصية من إبداع المؤلف الإسباني ماتيو ألمان (١٥٤٦؟-١٦١٠) الذي وضع رواية اسماها «سيرة عثمان الفراش (Guzman de Alfarache) -«مرآة للحياة الإنسانية» أو «الأنذال» استقى بعض احداثها من ملاحظاته خلال مساعدة والده الذي كان جراحاً في سجن إشبيلية. وكان المؤلف وفياً لشخصية عثمان الفراش فأمضى قسماً من حياته متسكعاً، ثم ارتحل إلى جزر الهند الغربيّة مغامراً ومات في المكسيك.

[١٨] Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, pp 18-19.

[١٩] أنظر دراسة الدكتور محمد عبده حتاملة «موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فيليب الثالث ١٥٩٨-١٦٢١».

[٢٠] Regla, Joan. *Estudios sobre los moriscos*, (Barcelona 1974) p 49.

ملوك الطوائف في زمن ضياع الأندلس حاولوا أيضاً مثل ملوك اليوم إدامة حكمهم بالرشوة والاذعان وبيع المواقف

عادل سعيد بشتاوي*

تكمن وراء نهوض الممالك الشمالية في الأندلس عوامل عدة تطورت مع الزمن استجابة لمتطلبات اقتصادية واجتماعية وسكانية محددة. وبما أن الأنظمة في كل مكان لا تقوم إلا على هذه العوامل فإن كل ما سواها، مثل العوامل الدينية والفكريّة والسياسية وغيرها، رديف أو حتى هامشي إلا في حالات بعينها لأن جلّ البشر يريد أن يأكل ويشرب ويتزاوج قبل أي شيء آخر، أي أنه يريد، باختصار، اشباع حاجات بطنه وفرجه.

وخلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين سجل عدد سكان الممالك المسيحية في الأندلس ارتفاعاً كبيراً نتيجة ثلاثة أسباب رئيسة: الأول تدفق المهاجرين الأوروبيين لاستيطان المناطق الجديدة التي احتلتها الممالك الشمالية، والثاني نزوح جماعات من النصارى المستعربين الذين كانوا يقيمون في الجنوب ثم فضّلوا الانتقال إلى الشمال لسبب أو آخر، والثالث ازدياد ملحوظ في نسبة التزايد السكاني في الشمال بعد مرحلة من الاستقرار النسبي التي أعقبت عجز قرطبة عن التصدي للشمال لانشغالها بالفتن الداخلية في عهدي الولاية والأمارة.

وفي البداية كان التحرك الشمالي نحو الجنوب استجابة لحاجة ملحة اقتضت مزيداً من الاراضي لاستيعاب العدد المتزايد من السكان، لكنه أصبح مع الزمن سياسة مرسومة سارع ملوك الشمال إلى تطبيقها كلما ضعفت مقاومة الأندلسيين خصوصاً عند نشوب الحروب الأهلية أو شيوع الفتن. وحيثما تمكن ملوك الشمال من تحقيق مكاسب جديدة على الأرض عمدوا بسرعة إلى إسكانها ليساهم المستوطنون في الدفاع عنها وابقائها بيد الشماليين.

وبحلول بداية العقد الثاني من القرن العاشر الميلادي كان ملوك أستورياس بسطوا سلطانهم على خُمس آيبرية فحققوا مطالب السكان الذين كانوا ينظرون إلى الملوك في تلك الحقبة من الزمن على أنهم مفتاح الخير والثراء. إلا أن هذا لا يستثني وجود عوامل أخرى ساهمت في الاندفاع نحو الجنوب مثل الجفاف أو المجاعة أو السعي إلى تحقيق انتصار إضافي لنصرة الدين أو إبعاد الأنظار عن المشاكل الداخلية وغيرها من الأسباب التي كمنت دائماً وراء نشوب الحروب في العالم، وفي صورة لا تختلف كثيراً عما يحدث اليوم.

وتتصف المناطق الجبلية التي قامت فيها الممالك الشمالية بوعورتها وفقرها وقلة خصوبتها مما يفسر سبب تجنّب معظم الغزاة الذين دخلوا آيبرية هذه التخوم منذ أقدم العصور. وعكس اقتصاد الممالك الشمالية الأولى أوضاعها الجغرافية والمناخية فتألفت عناصره الأساسية من تربية الماشية والاتجار بالصوف الخام والتجارة المحدودة وبيع العبيد الصقالبة إلى أن فتح ضعف الأندلسيين بوابة هائلة أمام

مصدر لا ينضب من الثروة التي تدفقت على الشمال. ولم يملك الشماليون في أي وقت من الأوقات التي سبقت القرن العاشر قوة كافية لاكتساح الجنوب.

والسبب ليس عسكرياً فقط لأن الشماليين ما كانوا سيتوغلون في الجنوب كثيراً حتى لو قدروا وحسبهم إذ ذاك السعي إلى الإغتراف من ثروة الجنوب. وعندما بدأ الشماليون النزول إلى سهول نهر دويرة وجدوا الأراضي الخصبة لكن قسماً كبيراً منهم كان ينأى عن مزاولة هذه الحرفة وظل هكذا في القرون اللاحقة. أما الخيار الأسهل من صنع الثروة فهو اقتناصها لكنّ اقتناصها لم يكن ممكناً قبل الوصول إلى تخوم وديان النهر الكبير حيث الثروة الأندلسية الكبيرة. وهذا ما حدث في صورة ملفتة أيام ملوك الطوائف عندما صارت الأندلس »بنك« ملوك الشمال يتلقون منه التحويل بعد الآخر في أوقات معلومة ويلوّحون بسيوفهم كلما تأخّر فيأتيهم متعجلاً نفسه حتى باتت الجزية أكبر مصدر دخل للممالك الشمالية.

وماذا كان ملوك الشمال يفعلون بكل ذلك المال؟

كانوا ينفقون جزءاً منه على بناء القصور وتجميلها بأيد أندلسية في حالات كثيرة، وكان جزء منه يتسرب إلى العامة إلا أن جزءاً كبيراً كان يُصرف على الجيش والمرتزقة، أي في الاستثمار في أدوات الحصول على مزيد من الجزية. وكان ملوك الطوائف في معظم سنوات القرنين الحادي عشر والثاني عشر يرشون الشمال خوفاً على عروشهم، إلا أنهم كانوا في الوقت نفسه يغذّون الحرب ضدهم صاغرين.وإذا اخذنا في الاعتبار المبالغ الهائلة التي دفعها ملوك الطوائف لقشتالة فربما أمكن القول إن العصور الوسطى لم تعرف إلا في حالات قليلة جداً وضعاً يماثل وضع الملوك الأندلسيين الذين وجدوا أنفسهم يموّلون الحرب ضد أنفسهم بأموال الشعوب التي حكموها.

وخلال القرنين المذكورين والعقد الأول من القرن الثالث عشر دخل الشمال والجنوب في الأندلس في حلقة عجيبة فصار التهديد بالحرب ضد الجنوب يغذّي الخزائن في الشمال ثم تعود الخزائن فتغذي التهديد بالحرب. وكلما ازدادت نفقات التهديد ازدادت الجزية وهكذا تسارع انتقال الثروة من الجنوب إلى الشمال وعجز ملوك الطوائف عن دفع المستحقات وبدأ غش العملة والتلاعب بأوزانها.

وماذا يحدث عندما يتوقف البنك عن إرسال التحويلات؟

يعلن متلقي التحويلات الإفلاس أو يفتّش عن مصدر آخر. وأحياناً يحدث شيء ثالث مختلف تماماً فيذهب الشخص الذي كان يتلقى التحويلات إلى البنك بنفسه ويستولي عليه كاملاً غير منقوص. وهذا ما فعله ألفونصو السادس عندما ذهب بنفسه إلى واحدة من أغنى مدن الأندلس هي طليطلة وأخذها عنوة، وحلتّ محل سياسة استدرار الثروة من مصادر الثروة سياسة جديدة قامت على الاستيلاء على مصادر الثروة نفسها.

معالم الاقتصاد الأندلسي

كان استتباب الوضع السياسي في الأندلس في عهد الإمارة بمثابة ضوء أخضر اعطى اشارة بدء عملية بناء الاقتصاد الأندلسي إذ أغلق عبدالرحمن الداخل باب السلطة في وجه الفئات المتنازعة والشخصيات

الطموحة وتحولت القوى المهدورة في النزاعات السياسية إلى المساهمة في زيادة الانتاج وتحقيق الرخاء الذي قام على الزراعة والتجارة والصناعة المتوافرة في ذلك الوقت. لكن أسس قيام تلك النهضة الزراعية والتجارية وُضعت عندما تقوض حكم القوط الغربيين في آيبرية (عام ١١٧)، وانتهى وجودهم الذي فرضوه على السكان المحليين فترة زادت على قرنين من الزمن.

ولم يكن الفلاحون بمنأى عن السياسة القوطية المتبعة في آيبرية، إذ كانوا عبيدا أجراء لدى النبلاء يقدمون لهم بين ٥٠ و٨٠ في المئة من المحصول. ولم تكن حصة الفلاحين تكفي أحيانا لبذار الموسم التالي أو لسد حاجة العاملين في الحقول، الأمر الذي أدى إلى تضاؤل الاهتمام بالأرض فأهملتهم عندما أهملوها. ونزلت بآيبرية قبل ثلاث سنوات من الفتح العربي مجاعة شديدة، وعصف بالسكان وباء فأودى بحياة الكثيرين.

وأعيد توزيع الاراضي الأندلسية بعد الفتح طبقا للطريقة التي سقطت بها هذه الاراضي، فمنها ما استبقاه السكان المحليون على صلح، ومنها ما ملكه الفاتحون بعد حرب أو بعدما فر أصحابها، ومنها أيضاً ما مُلك بطرق مختلفة أخرى. أما السكان المحليون الذين استمروا في العمل أو السكنى في أراضيهم، فكانوا عموماً يدفعون جزية وخراجاً على أرضهم من الغلة يراوح بين ٢٠ و٥٣ في المئة وأحيانا ٥٠ في المئة طبقاً لنوع المحصول وفترة إثماره والكمية الفائضة عن الاستهلاك والبذار.

وتوضح المعلومات الاقتصادية المتوافرة عن تلك الفترة من تاريخ الأندلس أن القمح كان المحصول الرئيسي، ويبدو انه كان يزيد على حاجة السكان في أغلب الاحايين. كما احتل الزيتون مرتبة مهمة فعُمد إلى توسيع نطاق زراعته وتحسينه لا سيما في المناطق المحيطة بمدينة جيان التي لا تزال حتى اليوم تعيش على الزيتون مصدراً رئيسيا لاقتصادها. وأدخل العرب في سنوات ما بعد الفتح مزروعات جديدة إلى الأندلس شملت الحمضيات واللوز والتين والدراق والرمان والموز والزعفران والحلفاء والقطن والكتان وقصب السكر والمشمش ومع الزمن أصبحت بلاد الأندلس كأنها بستان واحد متصل، كثيرة المبنى والثمار، وإذا سافر المرء من مدينة إلى أخرى، سار في مناطق عامرة مأهولة تتخللها قرى كثيرة نظيفة ومبيّضة الدور من الخارج، ولم يحتج المسافر أن يحمل معه زاداً أو ماءً.

وحيثما وجد عرب أو بربر في منطقة أو أخرى، اعطى هؤلاء المكان سمات متميزة كما حدث بالنسبة للسوريين في كورة البيرة (غرناطة) والمصريين في باجة وتدمير (مرسية) والفلسطينيين في مناطق شذونة، والاردنيين في رية، وأهل حمص في إشبيلية، والبربر في المناطق المرتفعة التي تلائم طبيعتهم وتتشابه مع المناطق التي قدموا منها قبل الفتح. وكان لادخال الحمير إلى الأندلس بعد جلبها من مصر مفعول هائل في »تثوير« طرق الفلاحة والحصاد وارتفاع حجم المحصول. وربما بدا هذا غريباً اليوم، لكن أحد مفاهيم الرخاء في ذلك العصر، كان توافر حمار لكل شخص يستخدمه في غاياته المختلفة.

وسدّ تطوّر الزراعة في الأندلس حاجة الاستهلاك المحلي وقدم جزءاً كان يُصدر إلى الشمال الافريقي ومنه إلى مصر وربما وصل بعض المنتوجات إلى بغداد.لكن هذا لا يعني ان الخير كان عاماً إذ تسببت عوامل كثيرة في إضعاف المحصول في بعض السنين وحتى في وقوع مجاعات عدّة، كما حدث عام ٥١٨ (٩٩١) و٥١٩ (٢٠٣) عندما مات أكثر الخلق جهداً. أما في الأوقات غيرها فقد استطاعت الأندلس النهوض من

محنتها ومتابعة صنع الرخاء الذي عرفته حتى في أوقات ضعف سلطتها السياسية. واستفاد الأندلسيون في نشاطهم الزراعي من القنوات التي بناها الرومان في القرن الأول المسيحي لكنهم زادوا عليها وأصلحوا القديم منها وحسّنوه وشقوا قنوات جديدة.

واتقن الأندلسيون التعامل بفنون السقاية وجلب المياه من مسافات بعيدة. كما استخدموا النواعير، وكانت من النوع الذي تربط إلى إطاره قلال من نوع لا يزال موجوداً في بعض مناطق الصعيد المصري حتى الآن. ومع انحسار الوجود العربي في منطقتي غرناطة وبلنسية تكثّفت الخبرة وتحولت المنطقتان إلى اثنتين من أخصب بقاع أوروبة، وبقيتا كذلك حتى رحّلت السلطات القشتالية الأندلسيين في بداية القرن السابع عشر. وتعرض النشاط الزراعي إلى كارثة نتيجة الاهمال استمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر عندما تجدّد الاهتمام به اعتماداً على الكتب الزراعية التي وضعها الأندلسيون. ومع الزمن أصبحت إسبانيا من بين أكثر الدول انتاجاً للزيتون والدرّاق، وهي اليوم أكبر مصدر للزعفران ومركز الاتجار به مدينة البسيط جنوب غربي بلنسية.

الصناعة

وفّر تطور زراعة القمح والقطن والكتان والتوت وازدياد الاعتناء بتربية الماشية المواد الأولية اللازمة لقيام صناعات خفيفة، لقيت تشجيعا مناسباً فنمت في معظم أرجاء الأندلس مستفيدة من الخبرات التي توافرت لدى السكان المحليين في بداية عهد الفتح، ومن الخبرة التي حملها العرب الذين استوطنوا الأندلس في سنوات لاحقة. وبتوافر المواد الأولية والخبرة تطورت صناعة المنسوجات والسكر والخزف والسجاد والعطور والمواد الكيماوية المختلفة لا سيما الاصباغ، وكذلك صناعة الزجاج والصناعات اليدوية الأخرى.

وترد إشارات كثيرة إلى هذه الصناعات إذ أنشأ عبدالرحمن الداخل داراً خاصة للطراز، تُصنع فيها ملابس أصحاب الخدمة. وتطورت صناعة الملابس في ما بعد لتغطي الاستهلاك المحلي مع تخصيص قسم كان يُصدّر إلى المغرب أو الشمال. وربما اعتبرت مدينة شقوبية من أهم مراكز صنع الملابس في الأندلس حتى سقطت بأيدي الشماليين عام ٥٨٠١ (٤٧٨). أما غرناطة فكانت أهم مراكز تربية دود القزّ وصناعة المنسوجات والملابس الحرير في أوروبة حتى أمر فيليب الثاني بتغريب معظم سكان المملكة بعد الثورة الكبرى إلى مناطق منحوسة كثيرة في القشتالتين القديمة والجديدة.

وأحسن الأندلسيون استغلال عدد كبير من المعادن المحلية مثل الحديد والزئبق والنحاس، فكان ذلك عاملاً مهماً في تطوير صناعة الأسلحة والمعدات العسكرية الأخرى التي كانت مستخدمة في ذلك الوقت. وشجع عبدالرحمن الثاني هذه الصناعة وذاع صيت طليطلة كمركز رئيس لصناعة الأسنّة والرماح والسيوف وغيرها من الأسلحة،١١ ثم تطورت هذه الصناعة في العصور الأحدث فصارت تُنتج البنادق والأسلحة الفردية وغيرها.

ومع تقدم الصناعة في القرن التاسع الميلادي تمكّن الأندلسيون من انتاج الزجاج المعروف بالظرابي الصواني والزجاج الشفاف والورق. ولمع اسم مدينة شاطبة Jativa مركزاً مهماً لانتاج المادة الاخيرة، مما ساهم إلى حد كبير في تطوير صناعة الوراقة. ونشطت هذه الصناعات على نطاق »ورشات« صغيرة

يعمل فيها عدد محدود من الاشخاص، سواء كان ذلك في ورشات صناعة الأسلحة أو المصابيح أو في معاصر الزيتون والمطاحن التي لا تزال انقاض بعضها باقية حتى اليوم في قرطبة على رغم مرور أكثر من الف سنة على بنائها.

أما الصناعات الاثقل فشملت السفن بكل أنواعها السفري والتجاري والحربي استجابة لمتطلبات الدفاع والتجارة والتنقل، وتركزت في الجنوب الأندلسي، وعلى الساحل الشرقي في مدن مثل المرية ولقنت ودانية وغيرها. ويبدو أن انتاج السفن كان كبيراً نظراً إلى توافر معظم المواد الأوليّة اللازمة لذلك في الأندلس وبلاد المغرب وصقليّة التي كانت تُجلب منها أخشاب السفن مثل الصنوبر والأرز والبلّوط. ومن هذه الأخشاب كانت تُصنع ألواح السفن والصواري والمجاذيف، فيما توافرت المواد الأخرى بكثرة مثل الحديد لعمل المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف والعرادات والفؤوس واللتوت والدبابيس والجواشن وغير ذلك من الآلات والأسلحة، والنحاس الذي تصنع منه السلاسل، والألياف لعمل حبال المراسي، والقطران والزفت لقلفطة السفن حتى لا تؤثّر المياه في ألواحها المغمورة في البحر، والقطران والكبريت اللازمين لصناعة النفط البحري وهو نوع لا ينطفىء إذا سقط في الماء، وكذلك القطران والكتّان لصناعة النار الحارقة.

وتذكر وثائق تاريخية أن عدد السفن التي استخدمت في إخضاع سكان جزيرتي ميورقة ومنورقة عام ٩٤٨ (٢٣٤) كان نحو ٣٠٠ سفينة مما يدّل على اتساع صناعتها. كما استخدم عدد كبير من السفن لحراسة الشواطئ الأندلسية، لا سيما إثر الهجمات التي شنها النورمان اعتباراً من عام ٤٤٨. ولا شك في ان توافر مثل هذا الاسطول لغرضي الدفاع والتجارة كان سبباً مهماً في إيجاد الاستقرار المطلوب للاستمرار في تطوير البنية الصناعية الأندلسية وزيادة رخاء البلاد.

التجارة

ساهم وجود فائض في المنتوجات الزراعية والصناعية في تشجيع تجارة نشطة عادت على الأندلس بالرخاء ومنحتها القوة التي مكنتها من التصدي للشماليين حتى بعد انهيار الخلافة، وإن كان هذا الرخاء أجّج أطماع الممالك الشمالية. ومنذ نشوء الأمارة القرطبية تكاملت القدرات الإدارية اللازمة لبدء عملية بناء الاقتصاد الأندلسي، فاعتمد الناس في بداية الأمر الأوزان والمقاييس ذات الأصل الروماني. وسك عبدالرحمن الداخل الدينار القرطبي فأصبح عملة مقبولة في كل الأندلس، وفي كثير من دول أوروبة.

وكانت المبادلات التجارية الدوليّة تتم بالدينار العربي ودينار بيزنطة ودينار غالة الذي سكّه للمرة الأولى الملك شارلمان. ولم تكن العملة التي سكت بأمر عبدالرحمن الأولى التي تضرب في الأندلس إذ سعى موسى بن نصير في بداية عهد الفتح إلى إبراز مظهر السلطة الإسلامية في آيبرية فضرب أول النقود التي كانت صورة عن النقود المستخدمة في آيبرية قبلا، سواء من ناحية المعدن أو الكتابة بالحروف اللاتينية مع استبدال المعاني المسيحية بأخرى إسلامية وإضافة التاريخ الهجري عليها. وتطورت عملية سك العملة في عهد عبد الرحمن فأنشأ داراً خاصة لها في عاصمة الامارة.

ولا تتوافر احصاءات تجارية يُعوّل عليها عن تلك الفترة لكن كتب التاريخ تذكر أنّ السفن التجارية

كانت تبحر بين الموانىء الأندلسية وموانىء المغرب والاسكندرية والشام وصقلية والجزر الأخرى في البحر الأبيض المتوسط وبعض الموانىء الأوروبية القريبة. وكان الأندلسيون يصدّرون إلى المغرب ومصر والشام وغيرها المنسوجات والوشي والبسط والزجاج والزعفران والورق والجلود وزيت الزيتون والأسلحة والزئبق والتوتياء والعنبر والعبيد الصقالبة، فيما كان التين يُحمل من مالقة ويباع في بغداد.

واستوردت الأندلس عدداً كبيراً من المصنوعات والمواد الأوليّة والفستق والجلود والزنوج الأفارقة، وظل الميزان التجاري لصالحها في أغلب الأوقات. وكان التجار الأندلسيون يحملون إلى قرطبة وإشبيلية وبلنسية وغيرها الذهب الذي كان يُستخرج من ضفاف أنهار غرب افريقيا ويُنقل عبر المغرب. وظل ذاك المصدر أهم مصادر المعدن الثمين إلى حين اكتشاف الذهب والفضة في بلاد أفريقية أخرى والعالم الجديد.

ولعبت الأندلس أيضاً دوراً رئيسياً كمصدر ومستورد مع الممالك الأوروبية فشملت الصادرات المنسوجات والملابس والمصنوعات اليدوية المتنوعة وغيرها الكثير. ولا شك ان تجارة العبيد الصقالبة كانت اهم تجارة تعاملت بها الممالك الشمالية الصغيرة، وكان هؤلاء يُؤسرون من مناطق وسط أوروبة ودول البلقان حاليا، وينقلون إلى الأندلس ومنها إلى المغرب ومصر والشام وباقي الدول و»جميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يُخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود والصقالبة«.١٤

وكانت هذه التجارة مصدر رخاء كبير لمدن مثل بمبلونة وبرشلونة، وعادت على الشماليين بدخل استخدموا بعضه لشراء المنتوجات الأندلسية المتنوعة، والبعض الآخر للإنفاق على الجيوش. فالتجارة في تلك الفترة، كما هي اليوم، كانت تتم من دون الالتفات كثيراً إلى بعدها العسكري، حتى أن ملوك الشمال الآيبري درجوا على شراء ملابسهم من الجنوب، لا سيما الحريرية، خلال فترات اندلاع الحروب بين الجهتين.

كما أدّت الأندلس دوراً رئيسياً كمركز لإعادة تصدير البضائع الشرقية والمغربيّة إلى الشمال وأوروبة خصوصاً التوابل والأفاوية والمكسرات والعطور وغيرها من المواد. وكان الأمان النسبي الذي ساد البحر الابيض المتوسط عاملاً مهماً في زيادة التبادل التجاري مع الأندلس، إذ كان هذا البحر خاضعاً للنفوذ العربي اعتباراً من منتصف القرن السابع الميلادي في إثر معركة ذات الصواري (٤٥٦)، لكن الحركة التجارية كانت أنشط مع المغرب لا سيما المغربين الاوسط والاقصى لسعة أسواقهما وارتفاع عدد سكانهما.

ووفر هذا الوضع الاقتصادي الجيد للأندلس رخاء كبيراً ربما فاق في بعض الفترات رخاء المشرق في القاهرة وبغداد ودمشق، ومكّن الأندلسيين من تطوير الزراعة والصناعة والتعامل التجاري تحت غطاء الأمن والاستقرار. إلا أن الأمر بدأ يتغير بعد انهيار الخلافة واهتزاز الأمن في الأندلس، على رغم ان وضع الأندلسيين ظل جيداً في صورة عامة حتى بعد تراجعهم وانحسار سلطتهم تدريجاً. ثم تكررت القصة ذاتها في مملكة غرناطة كما تشهد بذلك المزارع والأقنية والصناعات التي لا يزال بعضها، أو آثارها الدارسة، باقياً حتى اليوم.

اقتصاد الممالك الشمالية

كان الشماليون يتعاملون بدينار بيزنطة (دولار ذلك الزمان) ودينارى قرطبة وغالة. وكان المصدر الرئيس للدخل الماشية التي يملكونها بالإضافة إلى دخل محدود من الزراعة والصناعة وتجارة العبيد الصقالبة. واستمر التعامل التجاري ضمن المناطق الشمالية بالمقايضة، إلى ان أدخل هؤلاء بعض مظاهر النظام المالي من عاصمة الأندلس.

كما ساهم بعض من رحل إلى الشمال من المستعربين واليهود في ايجاد نشاط أفضل، سواء في تطوير الزراعة أو الصناعات. وتوافر للشماليين بعد انهيار الخلافة وقيام ممالك الطوائف دخل جديد سهل جاء عن طريق فرض الجزية. وفي القرن الثالث عشر انهت ممالك الشمال احتلال معظم اراضي الأندلس واتبعتها باحتلال غرناطة عام ٢٩٤١. وخلال تلك الفترة الطويلة من الزمن طرأت جملة تغييرات على طبيعة اقتصاد البلاد.

في أرغون مثلاً بقي عدد كبير من العرب، خصوصاً المزارعين الذين تابعوا فلاحة اراضيهم وانتاج المحاصيل والاستمرار في الصناعات التي اتقنوها، فلم تتضرر تلك المملكة كما تضررت المناطق التي احتلها ملوك قشتالة. ولا ينطبق هذا الوضع على كل الحالات فالمعروف ان خايمي الأول الأرغوني طرد عدداً كبيراً من المزارعين من أراضي مرسية مما أدّى إلى خرابها.

وانفصل اقتصاد أرغون عن قشتالة منذ القرن الثالث عشر حين بنت أرغون أمبراطوريتها في البحر الابيض المتوسط، فطورت أسطولها التجاري وأقامت أمبراطورية تجارية زاحمت الإيطاليين حتى تعرضت إلى الاضمحلال في القرن الخامس عشر قبل ان تلتهمها قشتالة، كما التهمت الأندلس، وكما حاولت بعد ذلك التهام البرتغال. ثم نزلت بأرغون نازلة كبيرة عندما نفت إسبانيا معظم الأندلسيين الجدد في مطلع القرن السابع عشر لم تتخلّص منها إلا بعد فترة طويلة.

ويعود اعتماد اقتصاد قشتالة على الماشية إلى إخفاقها في تطوير أي صناعة حقيقية. فمعظم ما وجد من صناعات في الشمال كان في صورة أساسية في أيدي المستعربين النازحين من الأندلس، أو اليهود. ومع احتدام القتال مع الأندلس اعتباراً من القرن الثاني عشر أضحى الاعتماد على الماشية امراً فرضته طبيعة الحرب فلو حدث مثلاً وأغار جيش على قلعة أو مدينة ما فمن السهل على الرعاة جمع ماشيتهم خلال ساعات والعودة بها إلى داخل اسوار المدينة. وكان المحاربون في تلك الفترات يعرفون أهمية الحرب الاقتصادية في إنهاك قوى الخصم وإضعاف قدرته على الصمود. وكانوا في الغالب يستعملون أسلوب الأرض المحروقة لتسريع سقوط المدينة، إذ كان عامل تجويع سكان المدينة أو القلعة وقطع الماء عنهم من أهم عوامل إنهاكها.

وكان الهجوم المباشر على الاسوار يسبب في العادة خسائر كبيرة في الأرواح، وكان معظم المدن قادراً على الصمود في وجه هجوم مباشر أو حصار قصير الأمد نسبيا. يُضاف إلى ذلك ان الجيوش المحاصرة كانت قلما تستطيع الصمود نتيجة حصار طويل الاجل ما لم يكن المدد مضموناً في صورة دائمة. وعلى هذا فإن اسقاط مدينة معينة كان يتم في العادة على ثلاث مراحل: الأولى الإغارة على المنازل المكشوفة المحيطة بتلك المدينة، وإحراق الزرع وقطع الأشجار والماء أو تحويل الجداول الصغيرة. ويشير بعض المعلومات إلى

ان إيزابيلا وفرناندو وظفا أكثر من نصف القوات المحشودة للحرب مع غرناطة لشن حرب اقتصادية شاملة ضد غرناطة، أحرقوا خلالها الزرع والمحاصيل حتى قلّت الأقوات وارتفعت أسعارها.

أما المرحلة التالية من الحصار فهي الاستيلاء على نقاط التحصين القريبة أو المنابر، وقطع طرق التموين المستخدمة لنقل المؤن على البغال والحمير في العادة كما بين مدينة غرناطة وقرى جبل شلير (الثلج). وإذا انتهت المرحلة الثانية ضرب الجيش المحاصر النطاق حول المدينة إلى ان يجوع أهلها وربما اضطروا بعد ذلك إلى الاستسلام. وهكذا كان حصار مدينة متوسطة الحجم يستغرق سنوات عدّة في بعض الاحايين قبل سقوطها لكن معظم المدن كان يستعصي ويضطر الجيش في النهاية إلى رفع الحصار.

ولم يملك القشاتلة في بداية نهوضهم الخبرة اللازمة لإدارة اقتصاد معقد يقوم على دعائم مشتركة ذات أداء يعتمد قسمه على القسم الآخر. وتوغّل القشاتلة في الأندلس خلال القرن الثالث عشر فدخلوا مناطق لا يعرفون كيف يديرون عجلة الزراعة والتجارة فيها، ويعرفون الأقل من ذلك عن الصناعة. وأدى احتلال المدن الأندلسية الكبيرة إلى تقويض دعائم الصناعة والتجارة فيها على الفور تقريباً، وكان همّ النبلاء الذين يحصلون على قطع من الأرض بعد احتلالها التمكن من الاحتفاظ بالمزارعين الأندلسيين.

وفي الحالات التي بقي فيها عدد كاف من المزارعين الأندلسيين، كما حدث في أرغون مثلاً وبعض مناطق الأندلس، تابعت الأرض انتعاشها. أما في معظم الحالات الأخرى فإن الأرض تحولت إلى بلقع من الزمن فباع أصحابها الأرض التي أقطعهم الملك إياها ورحلوا إلى الشمال ثانية في انتظار حرب أخرى يشاركون فيها للحصول على أراض غنيّة جديدة. واستفاد من تخريب الأرض عمداً أصحاب الماشية التي ملكها الافراد أو الفرق الدينية أو الرهبانيات أو الكنيسة، خصوصاً وسط البلاد الذي لا يزال إلى اليوم يبدو كأنه ساحة قتال فقيرة بالشجر والخضرة بسبب كثافة الرعي في أراضيه آنذاك.

على الساحل الشرقي لشبه جزيرة آيبرية أدى انهيار مدن مثل المرية ومرسية وغيرها إلى مساعدة مدن شمالية مثل برشلونة على تطوير تجارتها مع أوروبة والمشرق. وتوجد سجلات تشير إلى ان أرغون كانت تتاجر مع تونس ومصر وتلمسان اعتباراً من القرن الثالث عشر عندما قررت الاتجاه إلى منطقة البحر الابيض المتوسط لتنافس البندقية وفلورنسا وجنوة حتى وصل التنافس إلى حرب سافرة. ثم نمت برشلونة إلى ان أصبحت خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر واحدة من أكبر ورشات صناعة السفن في البحر الابيض المتوسط.

وكانت برشلونة مركزاً مهماً لتصدير عدد كبير من المنتجات الزراعية والصناعية الأندلسية قبل سقوط معظم مناطق الأندلس في القرن الثالث عشر، بل ان دورها يمتد إلى فترة الخلافة القرطبية. ولأن الوجود الأندلسي فيها كان كبيراً، تمكنت برشلونة من تصدير الأسلحة والجلود والأقمشة وجميع ما تحتاج اليه السفن، بالإضافة إلى عدد من المنتجات الزراعية من المناطق المحيطة ببلنسية مثل الزبيب والجوز، وكذا إعادة تصدير التوابل إلى فرنسا وإنكلترا وهولندا وغيرها من الدول قبل أن تضيف إلى صادراتها العبيد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

لكن أوج الرخاء الذي عرفته أرغون كان في القرن الثالث عشر والقسم الأعظم من القرن الرابع عشر حينما حاولت اللحاق بركب الممالك الايطالية التي كانت أول من استفاد من »الثورة التجارية« التي

قامت في آخر القرن الحادي عشر استجابة لمتطلبات الحروب الصليبية ومد خطوط التموين والنقل بين أوروبة والمشرق.

وما ان جاء عام ١٨٣١ حتى نزلت بأرغون مشاكل مالية معقدة اضطرت بعدها إلى التقهقر أمام تقدم التجار الايطاليين. ومنذ اكتشاف العالم الجديد ساهمت أرغون في الاتجار مع المستعمرات في ما وراء الاطلسي، لكن التجارة المباشرة كانت محصورة بقشتالة التي احتكرتها فترة طويلة إلى أن بدأ الهولنديون والانكليز في كسر هذا الاحتكار.

وفي قشتالة نفسها ظلت آثار عملية تخريب الاقتصاد الأندلسي التي رافقت اجتياح القرن الثالث عشر واضحة المعالم، وبقيت الزراعة بدائية للغاية. لكن بعض الصناعات الأساسية نما في القرن الرابع عشر، مثل صناعة الصابون والورق والجلود وغيرها من الصناعات الخفيفة. كما تطورت صناعة السفن في مدينة سنتندير الواقعة على خليج بسقاية في الشمال وكذلك في إشبيلية. ومع ذلك ظلّت قشتالة تعتمد على تصدير الصوف الخام كدخل رئيسي بعدما حسّنت نوع الصوف القشتالي نتيجة نجاح تهجين نوع الخراف المغربي المعروف باسم مورينو مع الأنواع المحلية آخر القرن الثالث عشر.

وخلال تلك الفترة تفوقت قشتالة في حجم صادراتها من الصوف على إنكلترا التي كانت قبل ذلك أكبر مُصدّر لهذه المادة. وبحلول القرن الرابع عشر باتت قشتالة أهم مصدري الصوف الجيد، وساهم ارتفاع حجم الصادرات في مطلع القرن الخامس عشر في بناء اسطول تجاري قشتالي كبير كانت سفنه تحمل الصوف والجلود إلى إيطاليا وهولندا وغيرها من الدول الأوروبية.

وعملت إيزابيلا في نهاية القرن الخامس عشر على سك عملة رئيسية هي »الاكسلنته« التي ساوت الدوقة المعتمدة في البندقية. ووحّدت المقاييس والأوزان وحسّنت الطرق والموانئ، ثم حدّدت كمية الصوف الممكن تصديرها بثلثي الانتاج لتشجيع صناعة المنسوجات. لكن إيزابيلا أصرت على الاهتمام بتربية المواشي دون سائر القطاعات الأخرى وأصدرت عام ١٩٤١ مرسوماً منع إقامة الحواجز في غرناطة كي لا تعيق رعي الماشية. وكان لسياسة إيزابيلا المعادية للزراعة أثر كبير في إضعاف الثروة الزراعية، وفضّل الإسبان في تلك الحقبة توظيف الاستثمارات في الماشية على الزراعة والتجارة والصناعة.

ووراء هذه السياسة خلفية نفسانية مهمة ميزت القشتاليين عن غيرهم إذ كان هؤلاء يترفعون عن القيام بالأعمال اليدوية، ويعتبرونها تحقيراً لشأنهم لذا ظلت الأقليات تسيطر على جزء مهم من النشاطات الصناعية والزراعية. وبقي القشتاليون يعتقدون أن وظيفة الآخرين فلاحة الأرض وانتاج المصنوعات لكن رسالتهم هي القتال والسيطرة على شعوب الأرض الأخرى وتسخير ثرواتها لخدمة أهدافها إلى أن بدأ نجم قشتالة في الهبوط في القرن السابع عشر.

مؤلف "الأندلسيون المواركة" و"الأمة الأندلسية الشهيدة"

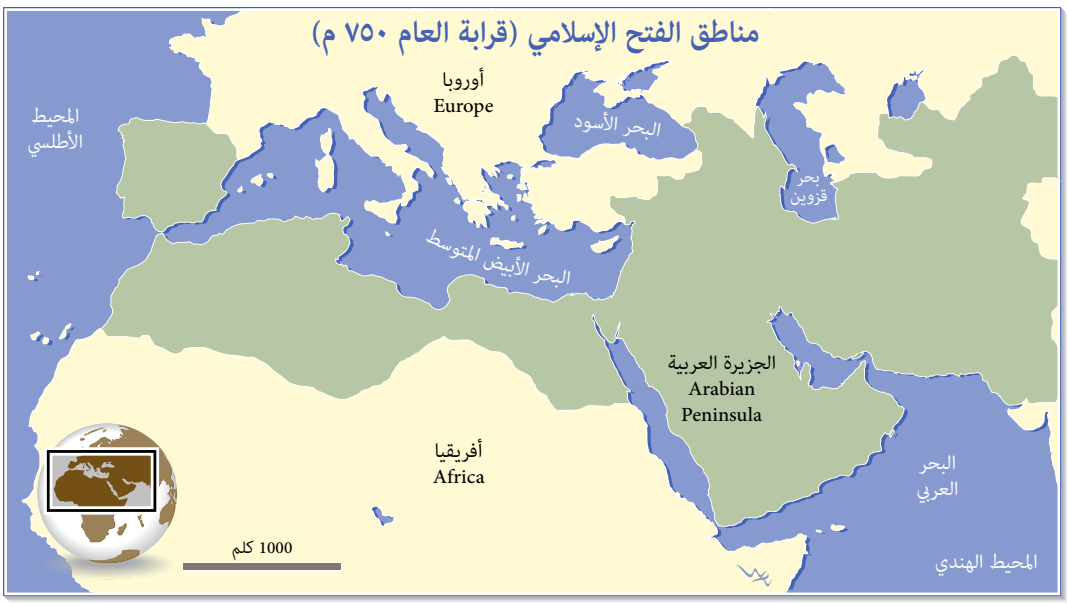

The Arab Conquests circa 750 A.D.

The boundaries of the Cordoba Emirate circa 800 A.D.

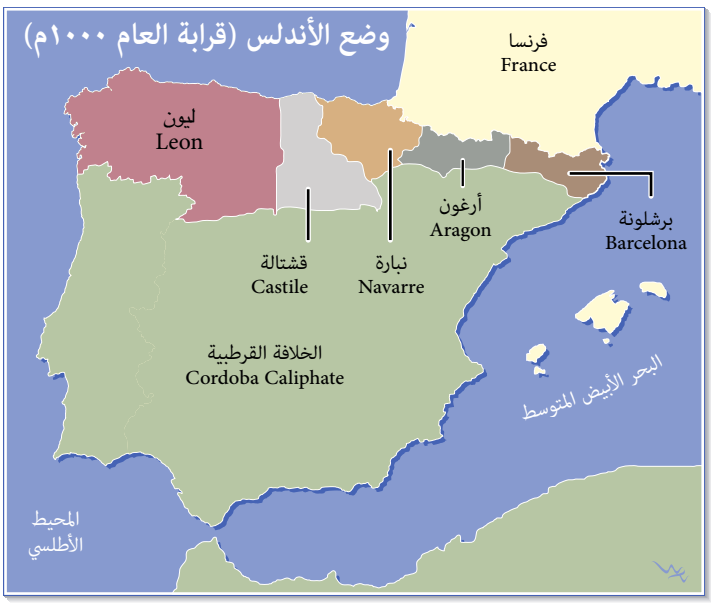

The boundaries of the Cordoba Caliphate circa 1000 A.D.

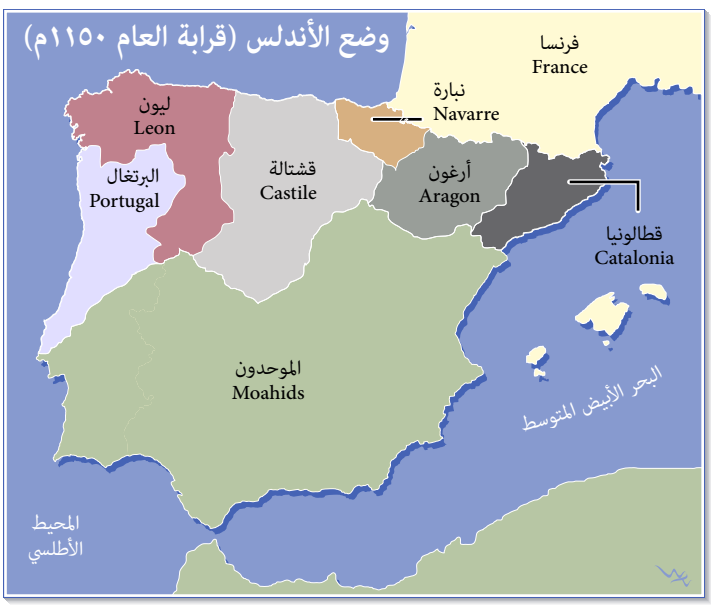

The Moahids circa 1150 A.D.

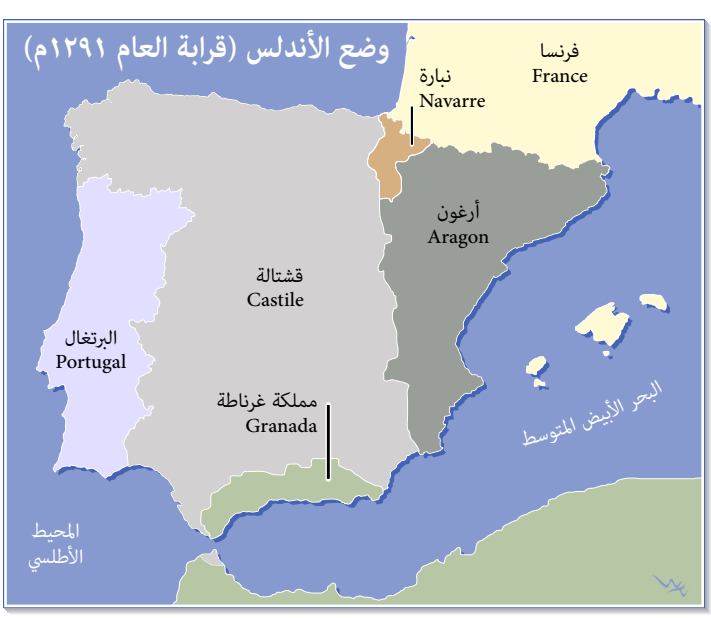

The Kingdom of Granada circa 1291 A.D.

اهم المدن والمواقع والاعلام

اذفونش بن ردمير	Alfonso I (Aragón)
الفونصو ١ (الكاثوليكى)	Alfonso I (Asturias)
الفونصو الثاني	Alfonso II (Aragón)
الفونصو «الطاهر»	Alfonso II (Asturias)
الفونصو بن رمند	Alfonso Raimundez
الفونصو السادس الليوني	Alfonso VI (Leon)
اذفونش ابن رمند	Alfonso VII (Leon)
الفونصو الثامن	Alfonso VIII
الفونصو العاشر «العالم»	Alfonso X (el Sabio)
الفونصو ابن الرنق	Alfonso Enriquez
طرف الفنت ، قرب المرية	Alfunt
الغرب ، جنوب البرتغال	Algarve
الجزيرة الخضراء ، مدينة	Algeciras
الحمة (الحامة) قرب غرناطة	Alhama
همدان ، مدينة	Alhendin
الخندق ، مدينة	Alhondiga
لقنت ، مدينة	Alicante
الأعجمية ، لغة	aljamiado
جبل المعدن	Almaden, Sierra de
المنصورة ، مدينة	Almanzora, Cuevas de
المعرض ، وادي	Almara
المنارة ، مدينة	Almenara de Madina
المرية ، (مدينة المرأى قديماً)	Almería
المدور ، نهر ووادي	Almodovar del Rio
جبل البشرة (البشرات)	Alpujarras, las
البة ، مدينة	Alva
البار هانش (البر هانس)	Alvar Hanez
أماية	Amaya
امبرياس ، امبورش	Ampurias
الأندلس ، الاندلس الصغرى	Andalucia
اندرش ، مدينة في الجنوب	Andarax
اندورا ، قائمية في البيرينيه	Andorra

Aben Abou	عبد الله بن أبيه
Aben Hummeya	ابن أمية ، زعيم أندلسي
Abencerrage	بنوالسراج (من غرناطة)
Abubacer	ابن طفيل الفيلسوف
Adra	عدرة ، مدينة
Adrian Utrecht	أدريان الاترشتي
Africanus, Leo	حسن الوزان ، مكتشف
Aguilar de la Frontera	اغيلار ، مدينة
Aguilar, Alonzo Y	الونثو دي أغيلار (بلاي)
Aguilar, Gonzalo	غونثالو القرطبي
Alacala de Guadaria	قلعة الوادي
Alange	الحنش ، قلعة
Alarcos	الأرك ، الأركة ، معركة
Albacete	البسيط ، مدينة
Albaicin	رباض البيازين ، غرناطة
Albarracin	بنو رزين ، مدينة السهلة
Alberca	البركة (في مرسية)
Albufera	البحيرة
Alcacer de Sal	قصر الفتح(أبي دانس)
Alcaiceria	القيصرية ، سوق الحرير
Alcala	القلعة ، مدينة وجامعة
Alcala la Real	قلعة يحصب
Alcaraz	الكرسي ، مدينة
Alcira	جزيرة شقر ، قرب بلنسية
Alcoy	الكوي
Alcuadete	القبذاق ، قرب جيان
Aledo	لبيط ، حصن
Alegria	القرية ، بلدة
Aleman, Mateo	ماتيو ألمان (مؤلف)
Alemunecar	المنكب
Alferez	الفارس
Alfonso	الفونصو ، الادفنش

Antequera	انتقيرة	Berchules	برشل ، بلدة في الجنوب
Aquila	وقلة ابن غيطشة	Berja	برجة ، مدينة
Aquitania	اقيطانية ، اكيتانيا (فرنسا)	Biscay	بسقاية ، بسكاي ، خليج
Aragón	ارغون ، اراغون ، مملكة	Boabdil	الملك عبد الله الصغير
Aranjuez	الرجوز ، الرنجوز	Boissonade	بواسوناد ، مؤرخ قديم
Arcos de la Frontera	اركش ، اركوش	Bombezar	وادي قيس
Ardabas	ارطباش ، ارطباس	Bordeaux	بوردو ، برذويل
Arianzon	الرنسون ، نهر ووادي	Burgo	برغه ، قرب رندة
Arinsol	فحص الرنسول	Burgos	برغش ، برقش ، مدينة
Arjona	ارجونة ، نرجونة ، مدينة	Cabo de Gata	رابطة القبطة ، قرب المرية
Arzila	أصيلا ، في المغرب	Cabra	قبرة ، مدينة
Asepuva	شيبة ، جبل	Caceres	قاصرش ، قشرش
Asma	اسمة ، مدينة	Cadiz	قادس ، مدينة
Asperi	اشبيرة ، ممر في البيرينية	Calahorra	قلهرة ، قلهورة ، مدينة
Astorga	اشترقة ، مدينة	Calatanzor	النسور ، مدينة وقلعة
Asturias	اشتورش ، استرياس	Calatrava la Vieja	قلعة رباح
Atienza	أنيجة ، انيتشة ، مدينة	Calpe	كالبي ، اسم قديم لجبل طارق
Audencia	المحكمة العليا	Caniles	قنالش ، قرب بسطة
Avenpace	ابن باجة	Cantabrica	قنتبرية ، سلسلة جبال شمالية
Averros	ابن رشد (الفيلسوف)	Capitan General	الحاكم العسكري (العام)
Avignon	ابنيون ، افنيون	Carcasona	قرقشونة
Avila	ابلة ، مدينة	Carlos V	كارلوس الخامس ، شارلكان
Axarquia	الشرقية ، مدينة	Carmona	قرمونة
Babastro	بيشتر ، جبل	Cartagena	قرطاجنة الخلفاء
Badajoz	بطليوس ، مدينة	Carteia	قرطية ، برج قرطجنة
Baeza	بياسة ، مدينة	Carvajal	كربجال
Baliunech	بنيوش ، بليونش ، مدينة	Castile, le Vieja	قشتالة القديمة
Barbastro	بربشتر ، مدينة	Catalonia	قطالونيا ، مملكة
Barbate	برباط ، نهر في الجنوب	Cerdana	شرطانية
Barbitania	بربطانية ، بربطانة	Ceuta	سبتة
Barcelona	برشلونة ، مدينة	Charlemagne	شارلمان ، قارلة
Basque	باسك ، اقليم في الشمال	Cherchel	شرشال
Baza	بسطة ، مدينة	Chinchilla	جنجالة
Beas	بيش ، مدينة	Cid, el Campeador	السيد القنبيطور
Beja	باجة ، مدينة	Cintra	شنترة
Belalcazar	غافق ، مدينة	Cisereus	الشرزي ، شرزوا ، في البيرينيه

Cisneros, Jimenez de	خمينيس دي سيسنيروس	Evors	يابرة
Ciudad Real	المدينة الملكية	Fajardo	فخاردو ، اسم قشتالي
Ciudad Rodrigo	السبطاط ، مدينة لذريق	Felipe II	فيليب الثاني
Clavijo	كلاييخو ، وقعة	Fernando	فرناندو (فراندة ، هراندة)
Comarex	قمارش	Fernando I (Aragón)	فرناندو الأول
Combra	قلمرية ، قلنبرة	Fernando I (Castile)	فرناندو القشتالي
Comes	قومس ، قمص	Fernando II (Leon)	فرناندو «الببوج»
Consuegra	كنشرة	Fernando III (Castil)	فراندة ابن الهنشة
Contreras, Alonso de	الونصو دي كونتريرس	Fernando IV (Castile)	فرناندو الرابع
Cordova	قرطبة	Fernando V (II)	فرناندو الكاثوليكي
Coria	قورية	Ferrant Martinez	فيرانت مارتينث
Covadonga	صخرة بلاي	Fraga	افراغة ، وقعة
Crete	كريت ، اقريطش	Franxinetium	جبل القلال
Cuenca	قونقة	Fraxiliana	فركسالة (فرجالة) ، مدينة
Cuevas del Almanzor	المنصورة ، مدينة	Frigiliana	فرجالة (فركسالة)
Cutanda	قتندة ، وقعة	Fuengirola	سهيل ، جنوب غربي مالقة
Denia	دانية ، دانة	Fuente de Cantos	لفنت ، مدينة
Denmark	الدنمارك ، الدانامرشة	Fuerta de Algeciras	باب الجزيرة
Diezma	دجمة	Galicia	جليقية ، مملكة
Don Juan de Austria	دون خوان النمسوي	Galleg	جلق ، نهر
Don Quixote	دون كيخوتي ، كيشوت	Gandia	غندة ، ودوق غندة
Doroca	دروقة	Gaspar d'Avalos	غاسبار دا فالوس
Duero	دويرة ، نهر ووادي	Gaucin	غصن (غصين) ، قرب رندة
Ebro	ابرة ، نهر ووادي	Gaulia (Francia)	غالة ، غاليش ، فرنسا
Ecija	استجة ، قرب غرناطة	Generalife	جنة العريف (غرناطة)
Egilona	أيلة ، زوجة لذريق	Genil	شنيل ، نهر في الجنوب
Elche	إلش	Gerona	جرندة ، جيروندة ، مدينة
Ello	اية	Gevaudon	جيفودون ، شاعر
Elvira	البيرة	Gibraleon	جبل العيون
Escolano	ايسكولانو ، مؤرخ بلنسي	Gibralfaro	جبل فارو ، قرب مالقة
Escorial, el	الاسكوريال	Gibraltar	جبل طارق
Espeja, la	شيجة	Gijon	جيجون (خيخون)
Espejo (Cordova)	شيجة قرطبة	Giralda	الجيرالدا ، مئذنة اشبيلية
Espinosa	اسبينوزا ، الكردينال	Gonzalo de Cordoba	«القبطان العظيم»
Estremadura	استريمادورا ، اقليم	Granada	غرناطة
Etepona	اشتبونة	Grao de Sangunto	غراو ساقونتة

Guadaira	الوادي ، قرب اشبيلية	Janda	الخندق ، نهر وبحيرة
Guadajara	وادي الحجارة ، مدينة	Jativa	شاطبة ، مدينة
Guadalete, Rio	نهر لكه (بكه)	Javea	جابية
Guadarrama, Sierra de	جبال الرمل (الرملة)	Jerez de la Frontera	شريش ، مدينة
Guadatin	وادي التين	Jiemena	شمانة ، خمانة ، زوجة السيد
Guadelquivir	نهر الوادي الكبير	Juana la Loca	خوانا المجنونة
Guadiana	وادي آنة	Juderia, barrio de la	حي اليهود
Guadix	وادي آش	Júcar	شقر ، نهر ووادي
Guazalete	وادي سليط	Julian	جوليان ، الليان ، يليان
Gudiel, Alonzo Fray	فراي الفونصو وديل	Lago	البحيرة
Guéjar	وجار ، مدينة	Lamax	اللاشة (الآشة) ماشة
Guerrero, Pedro	بدور غيريرو	Lanjaron	عنجر
Henares	هنارس ، نهر	Laroles	لورة
Hornachuelos	هرناش ، مدينة	Las Navas de Tolosa	وقعة العقاب
Hrosuitha	روسفيتا ، راهب	Lecrin	القرن ، وادي
Huebro	وبرة	Lemago	لميقة
Huelva	ولبة	Leon	ليون
Huesca	وشقة	Leon, Luis de	لويس الليونى
Huete	وبذة	Lerida	لاردة
Iberia	آيبرية ، أبارية	Lerma	ليرما ، مدينة ودوق
Ibiza	اليابسة ، جزيرة	Les Alfaques	الآفاق
Inox	أنوش	Librilla	لبرالة ، قرب مرسية
Inquisidor General	المحقق العام	Lisboa	لشبونة ، اشبونة
Irun	إيرون	Llegaron	القرون
Isabella de Solis	زوجة أبي الملك الصغير	Loja	لوشة
Isabella I	ايزابيلا (ازابل)	Lorca	لورقة ، جنوب غربي مرسية
Isla de las Palomas	جزيرة بلومة (طريف)	Lucainena	لقينة
Islas Baleares	الجزائر الشرقية (البليار)	Lucena	اللسانة ، اللشانة ، مدينة
Italica	طالقة ، قرب اشبيلية	Lugo	لك ، مدينة
Iznajar	حصن آشر قرب قرطبة	Lyon	ليون ، لوذون (في فرنسا)
Iznalloz	حصن اللوز ، مدينة	Madrid	مدريد ، مجريط
Iznatoraf	حصن الطرف	Maimonides, Moses	موسى ابن ميمون
Jaca	جاقة ، ممر	Malaga	مالقة
Jaen	جيان ، مدينة	Mallorca	ميورقة
Jaime	خايمي (جايمش ، جاقم)	Mantanza	منتزه
Jalon	شلون ، نهر	Maracena	مرشانة

Marbella	مربلة (ماربيا الحديثة)	Olivares,Conde-Duque	دوق اوليبارس
Marranos, Los	اليهود «الخنازير»	Olumundo	المند (ابن غيطشة)
Matamoros	ذباح الاندلسيين ، سنتياغو	Orense	أورية
Medina Azahara	المدينة الزهراء	Oreto	أوريط
Medina Sidonia	مدينة شذونة	Orihuela, Auriola	أريولة
Medinaceli	مدينة سالم	Orinse	أورنسة
Menorca	منورقة	Orthez	أورتيز
Mexia, Don Augustin	ميخيا ، دون أوغسطين	Orx	أرش
Mino, Rio	مينية ، نهر	Osma	أكشومة
Mirones	ميرون ، قائد قشتالي	Ostragoths	القوط الشرقيون
Mojácar	مجقار	Oviedo	أوبيط ، مدينة ، حصن
Moncofar	منقوفة	Padul (es)	بادول ، البذول ، مدينة
Mondego, Rio	منديق ، مندق ، نهر	Palencia	بلازيا (في الشمال)
Mondejar, Marquis de	مركيز مندخار	Palermo	باليرمو (بلرم)
Montiel	مونتيل ، بلدة	Pallares	بلد بليارش
Moreria	حي المواركة (بلنسية)	Pamplona	بمبلونة ، بنبلونة
Moriscos, los	المواركة (الموريسكيون)	Pechana	بشانة
Moro	العربى ، الأندلسى	Pechina	بجانة ، لبجانة
Moron	مرور (مورور) ، مدينة	Pedro	بدور ، بطرة ، بطر الخ
Motrill	مطريل ، مدينة	Pedro I (el Cruel)	بطرة بن الهنشة «القاسي»
Mozarabes, los	المستعربون	Pedroche	فحص البلوط
Mudejares, los	المدجنون	Pelayo (Pelagius)	بلايو ، بلاي ، بلي ، بلاغيوس
Murcia	مرسية	Peñón de Inox	حصن أنوش
Murviedro	مربيطر	Peña de Pelayo	صخرة بلايو
Naples, Napoli	نابولي (نابل)	Pirineos (Pirenaica)	البرينيه ، البرت ، البرتات
Narbona (Narbonne)	نربون ، نربونة ، أربونة	Portugal	البرتغال ، برتقال ، برطقال
Navarre	نافار ، نبارة ، نبرة	Priego	باغو
Navas de Tolosa, Las	العقاب ، وقعة	Puerta de la Estatua	باب الصورة (قرطبة)
Nerja	نرجة ، مدينة في الجنوب	Puig de Cebolla	أنيشة ، وقعة
Nicaia	نيقيا (أرنيق التركية)	Pulgar, Hernando del	هرناندو ديل بلغار
Niebla	لبلة	Purchena	برشانة ، مدينة في الجنوب
Níjar	نجار ، مدينة في الجنوب	Quesada	قيجاطة ، قرب جيان
Normandos, Los	النورمان (الاردمانيون)	Quixot, Don	دون كيخوتي ، كيشوت
Nuno de Lara	دننة ، ذو النونة ، ذنونة	Rahabatalcadi	رحبة القاضي (بلنسية)
Ocampo	أوكامبو ، مؤرخ	Ramiro	روميرو ، ردمير الخ
Ocsonoba	أكشبونة	Ramon Berenguer I	رامون برنجير الأول

Ramon Berenguer V	رامون برنجير الرابع	Sarria	بشارة
Randazzo	الرنداح ، الرنداج	Secunda, Xecunda	شقندة
Rayya, Reyo	ريّة	Segovia	شقوبية
Reconquista, La	حرب الاسترداد (إسبانية)	Segura	شقورة ، نهر ووادي
Regio	رية ، اقليم ، مدينة	Serin	سرية
Reina, Casiodoro de	كاسيودورو دي رينا	Seron	سيرون
Requesens	ريكويسنس ، قائد إسباني	Sesa, Doque de	دوق سيسه
Ribera, Juan de	خوان دي ريبره	Sevilla	اشبيلية
Ricote, Valle de	شقورة ، وادي ونهر	Sidonia, Rio de	نهر شذونة
Rodana	رودنة ، وادي	Sierra Almaden	جبل المعدن
Rodrigo	روديغو ، لذريق ، ردريق	Sierra Alpujarras	البشرات ، البشرة ، جبال
Rodrigo Diaz de Vivar	القنبيطور ، (السيد)	Sierra Bermeja	الجبل الأحمر
Rohne	الرون (رودنة) ، نهر	Sierra Morena	جبل الشارات
Roncesvalles	رنشفالة ، ممر في البيرينيه	Sierra Nevada	جبل الثلج (شلير)
Ronda	رندة	Siguenza	شفونة
Rorre de Oçama	برج اسامة (قرطبة)	Silves	شلب في البرتغال
Rueda de Jalon	روطة اليهود	Simancas	سيمانقة ، سيمانتقة
Sado, Rio	شطبر ، نهر	Somport	سومبورت
Sagrajas	الزلاقة ، وقعة	Soria	سرية ، مدينة
Sagunto	ساقونته ، سغوانتم القديمة	Tablada	طليطاطة من ضواحي اشبيلية
Salado, Battalla del	طريف ، وقعة	Tajo	تاجه ، نهر
Salamanca	شلمنقة ، سلمنتقة	Talamaca	طلمنكة
Sale	سلا ، سالة ، شالة	Talavera del la Reina	طلبيرة ، مدينة
Salobrena	شلوبانية ، شلوبين	Talavera, Hernando	هرناندو طلبيره
Saltex	شلطيش	Tarazona	طرسونة
Salvatierra	شلبطرة ، قلعة	Tarbal	طربال
Sancho	سانشو ، شانجة الخ	Tarifa	طريف ، طريفة
Sancho I (Castile)	سانشو الاول القشتالي	Tarragona	طركونة
Sancho II (el Fuerte)	سانشو الثاني «القوى»	Templares	فرسان الهيكل ، المعبد
Sancho IV (Valients)	سانشو الرابع «الشجاع»	Tendilla	تندلة (مركيز مندخار)
Sanchuello	شنجول	Teruel	ترويل ، طرويل
Santa Maria de Albarracin	شنتمرية الشرق	Theodemir (Tudmir)	تدمير (مرسيه في ما بعد)
Santaren	شنترين في البرتغال	Tocina	طشانة
Santaver	شنتبرية ، شنت برية	Toledo	طليطلة
Santiago	شنت يعقوب ، ياقب	Tolosa	طلوشة ، طلوزة
Sargossa	سرقسطة	Torquemada,Tomás de	توماس دي توركيماده

Torrencilla de Camer	ترجلة	Vascuence	البشقية، لغة الباسك
Torrox	طرش، مدينة في الجنوب	Vega	مرج (خاصة مرج غرناطة)
Tortosa	طرطوشة	Velez	بلش
Toulosa (Toulouse)	تولوز، طولوشة، طلّوزة	Velez Malaga	بلش مالقة
Trafalgar, Cape	طرف الغار	Vera, La	البيرة، مدينة
Tudela	تطيلة	Villajoyosa	بلد الجوز، بياخيوسا
Turigi	الطريقي، زعيم أندلسي	Vinaroz	ابن العروس
Turrilas	طريلة	Visigoths	القوط الغربيون
Tuy	تودي	Vivar, Rodrigo Diaz de	السيد القنبيطور
Ubeda	أبدة	Vivarrambla	باب الرملة (في غرناطة)
Ubrique	ابريق، مدينة	Vizcya	خليج بسقاية
Ucles	اقليش، اقليج، وقعة	Witiza	غيطشة، الملك
Ultimo Suspiro	بوابة أبي عبد الله الصغير	Xeres	شرش، مدينة في الجنوب
Urraca	أراكة	Ximenes (Cisneros)	خيمينس، خيمينث
Valencia	بلنسية، مدينة ومملكة	Zagal	الزغل، أحد ملوك غرناطة
Valladolid	بلد الوليد، مدينة	Zagra	حصن الصخرة في غرناطة
Valle de Alhar	وادي الحر	Zamora	سمورة، مدينة
Valle de Ricote	وادي شقورة	Zaragoza	سرقسطة
Válor, Fernando de	ابن أميّة	Zegri	الزيري، من أعيان غرناطة
Vascones	الباسك، البشكنش	Zocodover	سوق الدواب (طليطلة)

بعض المصادر التي اهتدي بها

● «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب». المقري، تحقيق الدكتور احسان عباس، (بيروت ١٩٦٨).

● «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين». محمد عبدالله عنان، (القاهرة ١٩٦٦).

● «أزهار الرياض في أخبار عياض». شهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني (المقري)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (القاهرة ١٩٢٩-١٩٤٢).

● «أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر». ابو العباس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي، (مدريد ١٩٥٧).

● «تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس». الدكتور عبد العزيز سالم، (بيروت ١٩٦٢).

● «أثر العرب في الحضارة الأوروبية - نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة». جلال مظهر، (١٩٦٧).

● «الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية». كريم عجيل حسين، (بيروت ١٩٧٦).

● «حضارة العرب في الأندلس». ا. ليفي بروفنسال، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت).

● «تاريخ مسلمي إسبانيا». ر. دوزي، ترجمة الدكتور حسن حبشي، (القاهرة ١٩٦٣).

● «تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس». الدكتوران السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، (بيروت ١٩٦٩).

● «المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب»، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشي، (طبعة ٢)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

● «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ج٢ و٣، (الدار البيضاء ١٩٥٤).

● «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، لوي كارديك، ترجمة عبد الجليل التميمي، (زغوان، ١٩٨٣).

● «الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين»، الدكتور عبد الجليل التميمي، زغوان (١٩٨٩).

Abu-Nasr, Jamil M., *A History of the Maghrib*, Cambridge, 1971.

Agull Pascual, Benjamin. *Los restos del rey moro Zeit abu Ceid*, (Valencia 1978).

Altamira, Rafael. *A History of Spain*, D. Van Nastrand Co., (New York 1949)..

Baroja, Julio. *Los Moriscos del reino de Granada*, Instuituto de Estudios politicos, (Madrid 1957).

Baronat Y Barrachina, Pascuel. *Los Moriscos españoles y su expulsion*, (Valencia 1901).

Bataller, Adelita. *La expulsion de los Moriscos: su repercusion en la propiedad y la problacion en la zona de los riegos del Vernisa*, (Valencia 1960).

Bendiner, Elmer. *The Rise and Fall of Paradise: When Arabs and Jews Built a Kingdom in Spain,* (New York 1983).

Bennassar, Bartolom, *The Spanish Character: Attitudes and Mentalities from the Sixteenth to the Nineteenth Century*, Berkeley, 1979.

Brockelmann, Carl, ed. *History of the Islamic Peoples*, Routledge & Kegan Paul, (London 1980).

Brunel, Antoine de. *Voyage d'Espagne*, Revue Hispanique, Vol. XXX, 1914 (PP 119-376).

Carvajal, Luis del Marmol. *Historia del rebelion y castigo de los Moriscos del reino de Granada*, Sancha Madrid, 1797, (2 Volumes).

(Monpellier 1970).Cardaillac, Louis. *La passage des Morisques en Languedoc*,

Caro Baroja, Julio. *Los moriscos del Reino de Granada*, Madrid, 1976.

Caro Baroja, Julio. *Los Moriscos Aragóneses segun un autor de comienzos del siglo XVII*, *Razas, pueblos y linajes*, Revista de Occidente, (Madrid 1957).

Castro, Americo. *The Spaniards: An Introduction to their History.* Berkeley: Univ. of California Press, 1971.

Castro, Amrico. *The Structure of Spanish History*, Princeton, 1954.

Chejne, Anwar G. *Islam And The West: The Moriscos - A Cultural and Social History*, State University of New York Press, 1984.

Circourt, Count Albert de. *Histoire des Arabes en Espane*, (3 Volumes).

Cutler, Allan Harris. *The Jew as Ally of the Muslims*. Notre Dame, Ind,: University of Notre Dame Press, 1986.

Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, George Allen & Unwin Ltd., (London 1970).

Dillenberger, John, and Welch, Claude. *Protestant Christianity*, Macmillan, 1988.

Dozy, R.P. *Histoires des Muslumans d'Espange*, (4 Volumes), (Leyden1861). (Dozy, R.P. *Spanish Islam*, Transland by F.G.Stokes,1913.
Elliott, J.H. *Imperial Spain (1469-1716)*, (London 1963).
Fonesca, P. Damian de. *Justa expulsion de los Moriscos de España*, Roma, Iacomo Mascardo, 1612.
Gayanogs, Pascual. *Language and Literature of the Moriscos*, British and Foreign Review, VIII, pp 63-95.
Gaztambide, Jose Goni. *The Holy See and the Reconquest of the Kingdom of Granada*, (1479-1492), R. Highfield ed., Spain in the Fifteenth Century 1369-1516, (London 1972).
Harvey, L.P. *The Moriscos and Don Quixote*, University of London King's College, 1974.
Jackson, Gabriel. *The Making of Medieval Spain*, (London 1972).
Janer, Florencio. *Condicion social de los Moriscos de España: causa de su expulsion y consecurencias que esta produjo en el orden economico y politico*, (Madrid 1857).
Joly, Barthelemy. *Voyage díEspange (1603-1604)*, Revue Hispanique, Vol XX, 1909, (PP 460-618).
Kamen, Henry. *The Spanish Inquisition*, New American Library, (New York 1965.)
Lapeyre, Henri. *Geographie de I'Espagne Morisque*, (Paris 1959).
Lea, Henry Charles . *A History of the Inquisition of the Middle Ages*. (3 volumes). (New York 1888); revised 1906
Lea, Henry Charles. *The Moriscos of Spain: Their Conversion and Expulsion,* (London 1968).
Lincoln, Joseph. *An Itinerary for Morisco Refugees from Sixteenth Century Spain*, Geographical Review, New York, XXIX, 1939.
Ortiz, Antonio Domingues. *The Golden Age of Spain*, Weidenfeld & Nicolson, London.
Ortiz, Luz. *Moros y cristianos: los moriscos de Albaida*, García-Bustelo, (Valencia 1998).
Parry, J.H. *The Spanish Seaborne Empire*, (London 1971).
Pidal, G.Menendez. *Los camions en la historia de España*, (Madrid 1951).
Ricard, Robert. *Indiens et Morisques, Etudes et documents pour l'histoire missionnaire de l'Espagne et du Portugal*, (Louvain 1931).
Roth, Cecil. *The Spanish Inquisition*, W. W. Norton & Company, (USA 1964).
Rule, William Harry. *History of the Inquistion.*
Sordo, E. and Swaan, Wim, *Moorish Spain*, (London 1963).
Spain, (*The Mainland*), Ian Robertson Ed., Benn, (London 1975).
Steffens, Bradley. *The Children's Crusade*. Lucent Bks., 1991.
Tarrida Del Marmol. *Les Inquisiteurs d'Espagne* , (Paris 1807);
Terrasse, Henri. *Islam d'Espagne*, plon, (Paris 1958).
Thomson, A & Ata'ur-Rahim. *Islam In Andalus*, Ta-Ha Publishers, (London 1996).
Vaillant, G.C. *Aztecs of Mexico*, Pelican, (London 1965).
Vicens Vives, Jaime. *Approaches to the History of Spain*, Univ. of California Press, (Berkeley 1967).
Vives, Jaime Vicens ed. *Historia economica de España y America*, (Barcelona 1957-1959).
Vives, Jaime Vicens. *Manual de Historia economica de España*, (Barcelona 1959)..
Watt, W. Montgomery and Cachia, W. *History of Islamic Spain*, (Edinburgh 1965).

الملاحق والمصادر والجداول

تاريخ اهم الوقائع الأندلسية والعربية والدولية

٧١٠م	٩١ هـ	موسى بن نصير يبعث بسرية استكشاف من ٤٠٠ راجل و١٠٠ فارس بقيادة طريف بن مالك (ملوك) النخعي في أربعة مراكب ونزوله في جزيرة بلومة التي عرفت في ما بعد باسمه طريف أو بالاسم الإسباني «طريفة» في جنوب آيبرية.
٧١١	٩٢	(٢٨ نيسان/ إبريل - ٥ رجب). طارق بن زياد والي طنجة يعبر الزقاق من سبتة الى طرف آيبرية على رأس سبعة آلاف مقاتل. طريف يلحقه بخمسة آلاف جندي.
٧١١	٩٢	(الأحد ١٩ تموز/ ٢٨ رمضان). التقاء طارق مع جيش القوط الغربيين بقيادة رودريك (لذريق) ونشوب معركة وادي برباط (بكة أو لكة) التي اسفرت عن انتصار طارق بعد قتال استمر ثمانية أيام (حتى ٥ شوال).
٧١١	٩٢	بداية مرحلة فتح الأندلس التي تستمر أربع سنوات حتى ٧١٤ (٩٥).
٧١١	٩٢	(نيسان/ شوّال). مغيث الرومي يفتح قرطبة التي أصبحت العاصمة بعد نقلها من إشبيلية في عهد الوالي أيوب بن حبيب اللخمي ابن اخت موسى بن نصير.
٧١٢	٩٣	(حزيران/ رمضان). موسى بن نصير (٦٤٠-٧١٦/ ١٩-٩٧) يعبر الزقاق (العدوة) على رأس ١٨,٠٠٠ مقاتل لاستكمال فتح الأندلس.
٧١٤	٩٥	بداية عهد الولاة الذي استمر ٤٢ سنة (حتى ٧٥٦/ ١٣٨).
٧٣٢	١١٤	(تشرين الأول/ الثاني - رمضان). موقعة بلاط الشهداء التي انتهت بهزيمة المسلمين واستشهاد عبد الرحمن الغافقي الوالي بعد ١٠ أيام من المعارك.
٧٥٠	١٣٢	نهاية الدولة الأموية في الشام.
٧٥١	١٣٣	ببان الثالث ابن شارل المعروف «بالمطرقة» يسترد مدينة نربونة من الأندلسيين.
٧٥٥	١٣٨	(١٤ آب/ ١ ربيع الأول). أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين ينزل في مدينة المنكب جنوب الأندلس.
٧٥٦	١٣٨	(١٥ أيار/ ١٠ ذو الحجة). نشوب معركة المصارة (المسارة) التي انتهت بانتصار عبد الرحمن (الداخل وصقر قريش) على الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري (جده عقبة بن نافع) والصميل بن حاتم ودخوله قرطبة.
٧٨٦	١٧٠	بداية بناء المسجد الكبير في قرطبة وهو اليوم ثاني أهم الآثار في إسبانيا بعد غرناطة ومعروف باسم «المزكيتا».
٧٨٨	١٧٢	(٣٠ أيلول/ ٢٥ ربيع الآخر). وفاة عبد الرحمن الداخل المولود في الشام سنة ٧٣١ (١١٣) من جارية بربرية اسمها راح.
٨١٤	١٩٨	(٢٨ كانون الثاني/ ٢ جمادى الثاني). موت شارلمان.
٨٤٤	٢٢٩	(آب/ أوائل ذي الحجة). هجوم النورمان (المجوس) الأول على الأندلس.

٨٤٨	٢٣٤	استخدام ٣٠٠ مركب لفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة.
٨٥٠	٢٣٥	مملكة أستریاس الشمالية تبدأ النمو على رغم العمليات العسكرية الاسلامية.
٨٥٩	٢٤٥	هجوم النورمان الثاني على الأندلس في ٦٢ مركباً.
٨٨٤	٢٧١	بدء توطين سهول نهر دويرة بنصارى الممالك الشمالية والأوروبيين.
٩١١	٢٩٨	مملكة أستریاس تسيطر على نحو خمس شبه جزيرة آيبرية.
٩١٢	٢٩٩	الممالك الشمالية تستكمل توطين بعض المدن وتحتل المناطق الواقعة شمال نهر دويرة وتغلق الطريق الرئيس بين سرقسطة واشترقة.
٩١٥	٣٠٢	وقوع مجاعة خطيرة في الأندلس لحقتها ثانية في قرطبة عام ٩٦٤ (٣٥٣).
٩٣٩	٣٢٧	وقعة الخندق عند مدينة شنت منكش وهزيمة الناصر لدين الله.
٩٨١	٣٧٠	الحاجب المنصور يسحق القوات المتحدة لممالك ليون وقشتالة ونافار (نبارة) في المعركة التي جرت قرب روطة اليهود.
٩٨٢	٣٧٢	يأس الممالك الشمالية من تحقيق أي انتصار على المنصور يسفر عن رضوخ ملوكها فيقدم ملك نافار (شانجة الثاني) له ابنته «عبدة» التي حملت ابنه شنجول.
٩٩٧	٣٨٧	المنصور يخرّب مدينة شنت يعقوب (ياقب) أو «سنتياغو» شمال غربي آيبرية.
٩٩٩	٣٨٩	المنصور يحتل مدينة بمبلونة (بنبلونة) عاصمة الباسك (البشكنس).
١٠٠٠	٣٩٠	المنصور يهزم قوات شانجة غرسيه قرب النسور جنوب غربي مدينة سرية.
١٠٠٢	٣٩٢	المنصور يُتوفى في مدينة سالم فيخلفه ابنه «المظفر».
١٠٠٩	٤٠٠	بداية عهد الطوائف الذي استمر حتى دخول المرابطين عام ١٠٩١ (٤٨٤).
١٠١٣	٤٠٣	وقوع الفتنة البربرية وتخريب قرطبة.
١٠٥٩	٥٤١	النورمان يسلخون الجنوب الإيطالي عن الامبراطورية البيزنطية.
١٠٦٤	٤٥٦	النورمان يحتلون مدينة بربشتر الشمالية ومقتل أو أسر بين ١٠٠ ألف و٤٠٠ ألف شخص من سكانها. ابن حيان المعاصر يصف الخطب بأنّه: «أعظم من أن يُوصف أو يُتقصى». استعادة المدينة عام ١٠٦٥ (جمادى الأولى ٤٥٧).
١٠٦٤	٤٥٦	فرناندو الأول يحتل مدينة قلمرية ويطرد جميع المسلمين من المناطق الواقعة شمال نهر دويرة.
١٠٦٦	٤٥٨	(١٤ تشرين الأول/ ٢١ ذو القعدة). وليام الفاتح النورماندي يهزم الانكليز في موقعة هيستنغز.
١٠٧١	٤٦٣	السلاجقة يهزمون بيزنطة في معركة ملازجرت ويهددون الكنيسة الشرقية.
١٠٧٥	٤٦٧	الكنيسة الكاثوليكية تحرق أول ضحايا «الهرطقة».
١٠٨٠	٤٧٣	ألفونصو السادس يركز جهوده على احتلال طليطلة بعد الأزمة الداخلية فيها.
١٠٨١	٤٧٤	بداية حصار طليطلة عاصمة الثغر الاوسط وإخفاق ملوك الطوائف في نجدتها.
١٠٨٥	٤٧٨	(الأحد ٢٥ أيار/ ٢٨ محرم). استسلام طليطلة لألفونصو السادس.
١٠٨٦	٤٧٩	(٣٠ حزيران/ ١٦ ربيع الأول). عبور سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين الى الأندلس استجابة لطلب بعض أمراء الطوائف، لا سيما المعتمد بن عباد صاحب

إشبيلية، بعد استفحال خطر ألفونصو السادس ومغالاته في طلب الجزية وتسليم الحصون والقلاع.

١٠٨٦	٤٧٩	(٢٣ تشرين الأول/ الجمعة ١٢ رجب). نشوب معركة الزلاقة التي انتهت بهزيمة ألفونصو السادس وتسمية يوسف بن تاشفين «أمير المؤمنين».
١٠٩١	٤٨٤	بداية عهد المرابطين بعد تصفية ملوك الطوائف بمن فيهم المعتمد بن عباد الذي نُفي الى أغمات وتوفى فيها. انتهاء عهد المرابطين عام ١١٢٦ (٥٢٠).
١٠٩٤	٤٨٧	(الخميس ١٦ حزيران/ ٣٠ جمادى الأولى). السيد القنبيطور (رودريغو دياث دي بيبار) يحتل مدينة بلنسية بعد حصار استمر ٢٠ شهراً إلى حين استعادتها عام ١١٠٢ (٤٩٥) بعدما احرقتها شمانة زوجة السيد.
١٠٩٥	٤٨٨	الامبراطور البيزنطي أليكسيوس كومينوس (١٠٨١-١١١٨) يتوجه الى البابا إربان (إربانوس) الثاني بطلب المساعدة ضد السلاجقة الأتراك.
١٠٩٥	٤٨٨	(الاثنين ٢٦ تشرين الثاني/ ٢٦ ذو القعدة). إربان الثاني يلقى خطبته الشهيرة بعد انعقاد المحفل الكنسي في كليرمونت معلناً بداية الحروب الصليبية، ويحض بعد ذلك الأمراء والفرسان في أوروبة للنهوض بهذه المهمة.
١٠٩٦	٤٨٩	الحملة الصليبية الأولى تبدأ بتسيير جيش من نحو نصف مليون فلاح فرنسي بقيادة الناسك بطرس الاميانى. نحو ٢٥ ألفاً من هؤلاء يعودون إلى بلادهم بعدما قتل الباقون على يد البلغار (البلغر) والسلاجقة. إتباع هذه الحملة بثانية قادها الأمراء والنبلاء استمرت حتى العام ١٠٩٩.
١٠٩٧	٤٩١	هزيمة الشماليين في معركة كنشرة في الأندلس.
١٠٩٩	٤٩٢	(الجمعة ١٥ تموز/ ٢٣ شعبان). الصليبيون يأخذون بيت المقدس من الفاطميين بعد حصار استمر خمسة أسابيع، ووقوع مذبحة كبيرة في المدينة يُقال انها طاولت ٧٠ ألف شخص.
١١٠٨	٥٠١	(٢٩ أيار/ ١٦ شوال). المرابطون يحققون انتصاراً مهماً في معركة اقليش (اقليج) قرب طليطلة.
١١١٦	٥٠٩	المرابطون يستردون الجزائر الشرقية بعد سنة من احتلالها.
١١١٨	٥١٢	(الخميس ١٩ كانون الأول/ ٤ رمضان). ألفونصو الأول «المحارب» (اذفونش ابن ردمير ملك أرغون) يحتل سرقسطة بعد حصارها.
١١٢٠	٥١٤	(الخميس ٢٢ حزيران/ ٢٤ ربيع الأول). هزيمة أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين شقيق الأمير المرابطي علي بن يوسف في معركة قتندة (قرب سرقسطة).
١١٢٥	٥١٨	(٧ كانون الثاني/ ٣٠ ذو العقدة). ألفونصو الأول يتجه الى غرناطة لاحتلالها بناء على طلب النصارى المعاهدين.
١١٢٨	٥٢٣	البرتغال تعلن استقلالها عن قشتالة وتبني مملكتها في ما بعد على حساب أراضي قشتالة والأندلس.
١١٣٤	٥٢٨	(رمضان/ تموز). هزيمة ألفونصو الأول الأرغوني في وقعة افراغه قرب لاردة.
١١٤٤	٥٣٨	قيام ١٤ مملكة في الأندلس بعد انهيار دولة المرابطين.

١١٤٥	٥٤٠	بداية عهد الموحدين الذي انتهى عام ١٣٢٣ (٦٢٠).
١١٤٧	٥٤٢	ألفونصو انريكيث البرتغالي يستولي على لشبونة (اشبونة) بمساعدة قوات صليبية من الانكليز والهولنديين والألمان فيما هي في الطريق الى المشرق.
١١٤٧	٥٤٢	الحملة الصليبية الثانية تبدأ بتوجه الألماني كونراد الثالث والفرنسي لوي السابع الى المشرق وتستمر حتى ١١٤٩ (٥٤٤) من دون تحقيق أي نتائج.
١١٤٩	٥٤٣	(السبت ٢٦ شباط/ ١٦ شوال). سقوط مدينة طرطوشة على يد رامون برنجير الرابع وحلفائه من فرسان الهيكل بعد حصار استمر ٤٠ يوماً.
١١٥١	٥٤٦	ألفونصو السابع يهاجم قرطبة وجيان لكنه يخفق في أخذهما.
١١٥٧	٥٥٢	الموحدون يستعيدون المرية من الشماليين بعد استسلام حاميتها.
١١٦٠	٥٥٥	البرتغالي ألفونصو انريكيث يستولي على قصر الفتح (قصر أبي دانس) بمساعدة القوات الصليبية المتجهة الى المشرق.
١١٧٢	٥٦٧	(آذار/ رجب). الشماليون يحتلون لاردة الواقعة في أقصى الشمال الشرقي.
١١٧٩	٥٧٥	البابا يعترف بالبرتغال مملكة مستقلة عن قشتالة.
١١٨٧	٥٨٣	صلاح الدين الأيوبي يهزم الصليبيين في معركة حطين ويستعيد القدس.
١١٨٩	٥٨٥	شن الحملة الصليبية الثالثة وغرق فريدريش الأول (بربروسا). الحملة تستمر ثلاث سنوات حتى ١١٩٢ (٥٨٨).
١١٩٢	٥٨٨	البابا سيلستين الثالث يرسل ابن اخته الكردينال غيورغو لحض الشماليين على القتال ويصلح بين قشتالة وأرغون وليون. بدء بناء قلعة الأرك الشهيرة.
١١٩٢	٥٨٨	(١٢ تموز). حامية عكا تستسلم لفيليب ملك فرنسا ولريتشارد قلب الأسد. ضرب اعناق نحو ٢٥٠٠ أسير مسلم بعد تأخر تسليم الفدية.
١١٩٣		(شباط) وفاة صلاح الدين الأيوبي في دمشق.
١١٩٥	٥٩١	(الخميس ٦ حزيران/ ٢٥ جمادى الآخرة). الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور يعبر الى طريف فقلعة رباح بعد استفحال خطر ألفونصو الثامن.
١١٩٥	٥٩١	(الثلثاء ١٨ تموز/ ٩ شعبان). هزيمة ألفونصو القشتالي في موقعة الأرك (الأركة) بعد يوم واحد من القتال.
١٢٠٤	٦٠٠	القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ومقر الكنيسة الشرقية التي استعصت على العرب بعد حصارها عام ٦٧٣ (٥٣) و٧١٧/ ٧١٨ (٩٨/ ٩٩) تسقط بأيدي الصليبيين الغربيين بتحريض النورمان والبندقية.
١٢١٠	٦٠٦	(١٦شباط/ ٢٠ شعبان). البابا أنوصان الثالث يأمر رودريغو خيمينث دي رادا، رئيس أساقفة طليطلة الجديد بحض ألفونصو الثامن على قتال الموحدين.
١٢١١	٦٠٧	(أول ايلول/ ربيع الأول). الذعر يدب في الممالك المسيحية بعد سقوط قلعة شلبطرة بيد محمد الناصر لدين الله لكونها حامية الجناح اليميني لقشتالة.
١٢١٢	٦٠٩	(٢٠ حزيران/ ١٩ محرم). قوات قشتالية وأرغونية وفرنسية وألمانية تخرج من طليطلة استعدادا للقاء الموحدين والأندلسيين.
١٢١٢	٦٠٩	الحملة الصليبية التي عرفت باسم حملة الصبيان تنتهي برجوع صبي فرنسي

واحد من أصل ٣٠٠,٠٠٠ و٢٠٠ صبي ألماني من اصل ٢٠,٠٠٠ .

١٢١٢ ٦٠٩ (الإثنين ١٦ تموز/ ١٥ صفر) . القوات الشمالية-الأوروبية المتحدة تحقق انتصاراً ساحقاً على الموحدين والأندلسيين في معركة العقاب بعد قتال استمر يوماً واحداً في سهل جنوب غربي حصن العقاب . إتباع هذا النصر باحتلال بياسة وأبدة .

١٢٢٣ ٦٢٠ قيام دولة بني الأحمر في غرناطة واستمرارها حتى عام ١٤٩٢ (٨٩٧) .

١٢٢٨ ٦٢٥ الحملة الصليبية الخامسة تستمر سنة واحدة يحتل خلالها فريدريش الثاني القدس وبيت لحم والناصرة بموجب معاهدة مع السلطان الكامل .

١٢٣٠ ٦٢٧ احتلال مدينة ماردة الواقعة شرق بطليوس .

١٢٣٠ ٦٢٨ (الاثنين ١ كانون الأول/ ٢٤ محرم) . الأرغوني خايمي الأول «الغازي» (جايمش بن بطرة بن جايمش) يحتل جزيرة ميورقة بمساعدة الإيطاليين والفرنسيين .

١٢٣١ ٦٢٨ اعتراف الأندلسيين بسيادة خايمي الأول على جزيرة منورقة ودفع الجزية له .

١٢٣٥ ٦٣٢ غيلين رئيس أساقفة طركونة والأمير البرتغالي بدرو يحتلان جزيرة اليابسة .

١٢٣٦ ٦٣٣ (الأحد ٢٩ حزيران/ ٢٣ شوال) . فرناندو الثالث (فراندة أو هراندة) بن الفنش (الهنشة) الذي لقب فيما بعد بـ«القديس»، يحتل مدينة قرطبة عاصمة الخلافة القرطبية البائدة ويطرد معظم سكانها .

١٢٣٦ ٦٣٣ القوات البرتغالية تحتل مدينة طبيرة في اقصى الجنوب وتستكمل بذلك السيطرة على سائر المناطق التي تتألف منها البرتغال اليوم .

١٢٣٧ ٦٣٤ (الخميس ١٣ آب/ ٢٠ ذي الحجة) . موقعة أنيجة (انيشة) تسفر عن سقوط حصن أنيجة على يد خايمي الأول ويشدّد بعدها الحصار على بلنسية .

١٢٣٨ ٦٣٦ (الثلاثاء ٢٨ ايلول/ ١٨ صفر) . بلنسية، كبرى قواعد شرقية الأندلس، تسقط بيد خايمي الأول بعد حرب استمرت خمس سنوات (منذ ١٢٣٣/ ٦٣١) .

١٢٤٣ ٦٤١ سقوط مدينة دانية جنوب شرقي بلنسية على يد خايمي الأول .

١٢٤٣ ٦٤١ (الأحد ٥ تموز/ ١٦ محرم) . خايمي الأول يحتل مدينة مرسية للمرة الأولى .

١٢٤٦ ٦٤٣ فرناندو الثالث يحتل مدينة جيان شرقي قرطبة .

١٢٤٧ ٦٤٤ فرناندو الثالث يحتل مدينة شاطبة ويطرد سكانها .

١٢٤٨ ٦٤٦ الحملة الصليبية السادسة تؤدي الى أسر لوي التاسع في المنصورة (مصر) عام ١٢٤٩ (٦٤٧) ومعه جميع أفراد جيشه .

١٢٤٨ ٦٤٦ إشبيلية تسقط بيد جنود فرناندو الثالث ومساعدة مهمة من قوات محمد (الأول) بن يوسف بن الأحمر بعد حصار استمر سنة ونصف السنة ويطردون غالبية سكانها في ٢٣ تشرين الثاني (الاثنين ٥ شعبان) .

١٢٥٣ ٦٥١ مملكة أرغون تستكمل احتلال نصيبها من الأراضي الأندلسية وتحوّل أنظارها الى البحر الابيض المتوسط (البحر الشامي) لبناء امبراطوريتها .

١٢٥٤ ٦٥٢ خايمي الأول يلغي كل الديون التي قدمها اليهود إلى مملكة أرغون وسط موجة من السخط على اليهود بتأليب من البابوية .

١٢٥٤ ٦٥٢ ملك فرنسا لوي التاسع يعود الى بلاده من الحروب الصليبية في المشرق ويطرد

اليهود من معظم أنحاء فرنسا.

١٢٥٨ ٦٥٦ انهيار الخلافة العباسية بعد اقتحام هولاكو بغداد ومقتل المستعصم آخر الخلفاء.

١٢٦٠ ٦٥٨ (الجمعة ١٠ أيلول/ ٣ شوّال). ألفونصو العاشر ينقل الحرب الى المغرب ويهاجم مدينة شالة (سلا) وهي ضاحية من الرباط اليوم.

١٢٦٢ ٦٦٠ ألفونصو العاشر يقتحم مدينة لبلة الجنوبية ويطرد سكانها.

١٢٦٤ ٦٦٢ (حزيران). المسلمون ينظمون انتفاضة شاملة في الجنوب ويستردون مرسية.

١٢٦٦ ٦٦٤ (الأحد ٣١ كانون الثاني/ ٢٣ ربيع الأول). خايمي الأول يأخذ مرسية صلحاً لابنته زوجة ألفونصو العاشر.

١٢٧٠ ٦٦٨ الحملة الصليبية السابعة تنتهي بإصابة الملك الفرنسي ومعظم أفراد جيشه بالطاعون وموتهم في تونس.

١٢٧٥ ٦٧٤ طرد أعداد كبيرة من أندلسيي مرسية مما ألحق خرابا كبيراً بالمنطقة.

١٢٧٥ ٦٧٤ (السبت ٧ أيلول/ ١٥ ربيع الأول). السلطان المريني المنصور يحقق انتصاراً مهماً على جيش قشتالة.

١٢٨٧ ٦٨٦ سقوط جزيرة منورقة بأيدي جنود أرغون.

١٢٩١ ٦٩٠ المماليك يستردون عكا ويلحق بذلك تخلي الصليبيين عن بيروت وصور وصيدا وانتهاء مرحلة الحروب الصليبية ضد المشرق في شكلها القديم.

١٢٩٩ ٦٩٩ قيام الدولة العثمانية واستمرارها حتى عام ١٩٢٠.

١٣٤٠ ٧٤١ (٣٠ تشرين الأول/ ٧ جمادى الأولى). انهزام المسلمين في وقعة طريف الأندلسية التي استخدم فيها لأول مرة في أوروبة نوع من المدافع عرفت بالانفاط.

١٣٤٢ ٧٤٣ بدء حصار مدينة الجزيرة الخضراء في حملة اشتركت فيها قوات أوروبية كثيرة إذ حاصرها القطلان وأهل جنوة من البحر وهاجمها فيليب الثالث النافاري وايرل داربي وسالزبوري الانكليزيان من البر فيما قدم بابا روما المال لتمويل العمليات القتالية. أول أنواع المدفعية التي عرفت في أوروبة تُستخدم في دكّ أسوار المدينة.

١٣٤٤ ٧٤٤ (الخميس ٢٥ آذار/ ٩ ذو الحجة). استسلام الجزيرة الخضراء وبقاء جبل طارق بأيدي قوات المرينيين.

١٣٤٧ ٧٤٨ (تشرين الأول). سفينة تابعة لجنوة تعود من ميناء كافا في شبه جزيرة القرم وهي تقل بحارة اصيبوا بالطاعون (الموت الأسود) المنتشر في الشرق. الطاعون الذي انتقل الى اوروبة واستمر ثماني سنوات حتى ١٣٥٤ (٧٥٥) يسبب موت نحو ٦٠ مليون شخص منهم ٢٥ مليوناً في أوروبة. ارتبط انتشار الطاعون باليهود مما أدى إلى ذبح الكثيرين بين ١٣٤٨ و١٣٥١.

١٣٤٩ ٧٥٠ ألفونصو الحادي عشر يحاصر جبل طارق لكنه يصاب وجنوده بالطاعون.

١٣٧٤ ٧٧٦ غرناطة تستعيد جبل طارق وتضمه إلى مملكتها.

١٣٨٥ ٧٨٨ انتصار البرتغال على قشتالة في معركة الجبروت.

١٤٠٢ ٨٠٤ (الخميس ٢٠ تموز/ ١٩ ذو الحجة). تيمورلنك يأسر السلطان العثماني بيازيد.

١٤١٥ ٨١٨ البرتغاليون يحتلون مدينة سبتة في الطرف المغربي.

١٤٥٣	٨٥٧	(الخميس ٢٩ أيار/ ٢٠ جمادى الأولى). محمد الثاني يحتل القسطنطينية.
١٤٦٢	٨٦٧	تجدد القتال بين قشتالة وغرناطة بعد سلم، وسقوط جبل طارق.
١٤٧٤	٨٧٩	إيزابيلا تعتلي عرش قشتالة.
١٤٧٤	٨٧٩	البابا سيكستوس الرابع يحض إيزابيلا على انشاء محكمة تحقيق بابوية للقضاء على «الهراطقة» والمحافظة على نقاء الكاثوليكية.
١٤٧٨	٨٨٣	سيكستوس الرابع يوافق على إنشاء محكمة تحقيق قشتالية.
١٤٧٩	٨٨٤	فرناندو الخامس زوج إيزابيلا يرث عرش مملكة أرغون فتتوحد المملكتان.
١٤٧٩	٨٨٤	(السبت ١٣ تشرين الثاني/ ٢٨ شعبان). البابا سيكستوس الرابع يصدر إرادة بابوية خاصة في شأن حملة صليبية تسمح لإيزابيلا بتسويق صكوك الغفران لتمويل الحرب ضد مملكة غرناطة.
١٤٨٠	٨٨٥	إيزابيلا تصدر مرسوماً يأمر سكان قشتالة وليون بالتعاون مع محاكم التحقيق.
١٤٨١	٨٨٦	اندلاع الحرب بين غرناطة وقشتالة بعدما رفض أبو الحسن علي بن سعد تسليم بعض المراكز العسكرية ودفع الجزية، وهاجم مدينة الزهراء واستردها.
١٤٨١	٨٨٥	(الثلاثاء ٦ شباط/ ٧ ذو الحجة). الاحتفال بإحراق أول مجموعة من ضحايا محاكم التحقيق ليصل العدد في نهاية السنة إلى ٢٩٨ شخصاً.
١٤٨٢	٨٨٧	(محرم). فرناندو يستولي على مدينة الحمة (الحامة) قرب غرناطة.
١٤٨٣	٨٨٨	فرناندو يحتل مدينة الزهراء بعد نحو سنتين من استعادتها.
١٤٨٥	٨٩٠	فرناندو يحتل مدينة رندة.
١٤٨٧	٨٩٢	فرناندو يحتل مدينة مالقه بعد حصارها واستخدام المدافع لدك أسوارها. سكان المدينة ينتهون قتلاً أو سبياً عن آخرهم.
١٤٨٧	٨٩٢	تأسيس محكمة تحقيق في مملكة أرغون (برشلونة) على رغم المعارضة القوية.
١٤٨٨	٨٩٣	فرناندو يشدد الحملة على غرناطة ويبدأ نشاطا عسكرياً جديداً احتل خلاله مدن بسطة والمرية ووادي آش.
١٤٩٠	٨٩٥	(نيسان). بداية حصار مدينة غرناطة بعد إحراق مرج غرناطة والحقول.
١٤٩٠	٨٩٥	توركيماده المحقق العام لمحاكم التحقيق يبدأ حملة ضد اليهود باحراق كتبهم.
١٤٩١	٨٩٧	(٢٥تشرين الثاني/ ٢١ محرم). توقيع معاهدة تسليم غرناطة.
١٤٩٢	٨٩٧	(٢ كانون الثاني/ ٢ ربيع الأول). استسلام مدينة غرناطة.
١٤٩٢	٨٩٧	(الجمعة ٣٠ آذار/ ١ جمادى الثانية). إيزابيلا تصدر مرسوماً بطرد اليهود الذين يختارون البقاء على دينهم خلال أربعة أشهر.
١٤٩٢	٨٩٧	(٣ آب). الجنوي كريستوفر كولومبوس يغادر قشتالة في رحلته الأولى ويكتشف (١٢ تشرين الأول) سان سلفادور حاليا، ثم يقوم بأربع رحلات خلال السنوات العشر التالية.
١٤٩٣	٨٩٨	(٨ تموز/ يوليو-٢٣ رمضان). أبو عبد الله الصغير يوافق على ترك وادي آش.
١٤٩٦	٩٠١	طرد اليهود من البرتغال في إثر ضغوط من قشتالة.

١٤٩٧	٩٠٢	قوات قشتالة تنقل الحرب الى الساحل المغربي وتهاجم مدينة مليلة .
١٤٩٨	٩٠٣	وفاة المحقق العام توركيماده .
١٤٩٩	٩٠٤	(تشرين الثاني) . اندلاع الثورة الأندلسية الأولى .
١٥٠٠	٩٠٥	(أذار) . فرناندو الخامس يتسلم إدارة دفة قتال الثوار الأندلسيين ويتوجه بجيش كبير الى جبل البشرة .
١٥٠١		اندلاع الثورة في الجبل الأحمر وإرسال القائد ألونثو دي أغيلار لإخمادها الا إنه يتعرض إلى كمين ويُقتل مع جنود كثيرين .
١٥٠٢		١٢ (شباط) . إيزابيلا تصدر مرسوماً يخيّر الأندلسيين بين الرحيل أو التنصّر .
١٥٠٢		(نيسان) . عدد الأندلسيين الذين غادروا غرناطة يصل الى ٣٠٠ ألف شخص .
١٥٠٤		وفاة إيزابيلا .
١٥٠٧		الكردينال خيمينس ، مضطهد الأندلسيين ، يصبح محققاً عاماً لمحاكم التحقيق .
١٥٠٨		فرناندو الخامس يصدر مرسوماً يقيد حريات الأندلسيين .
١٥٠٩		خيمينس يقود هجوماً على وهران يسفر عن مقتل الآلاف .
١٥١٥		خيمينس يشكّل محكمة تحقيق في وهران .
١٥١٦	٩٢١	(الإربعاء ٢٣ كانون الثاني/ ١٩ ذو الحجة) . موت فرناندو .
١٥١٧		كارلوس الخامس يصبح ملكاً على قشتالة وأرغون .
١٥١٧		(٣١ تشرين الأول) . مارتن لوتر ينشر أطروحاته الدينية .
١٥٢١		الرعاع في بلنسية يجبرون الأندلسيين على التنصّر عقب اندلاع ثورة المدن .
١٥٢٥		صدور مرسوم جديد خاص بالأندلسيين يؤكد قيود مرسوم عام ١٥٠٨ .
١٥٢٦		تأسيس محكمة للتحقيق في غرناطة .
١٥٢٩		(أيار) . احراق أول مجموعة من الأندلسيين المتهمين بـ«الهرطقة» .
١٥٥٦		كارلوس الخامس يتنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني ويموت بعد سنتين .
١٥٥٩		(١٤ كانون الأول) . احراق الأندلسي البروتستانتي خوان غونثاليث مع اختيه في اشبيلية بعد تعذيبهم .
١٥٥٩		اكتشاف خليتين للبروتستانت وإحراق الهراطقة في بلد الوليد وإشبيلية .
١٥٦٧		(الأول من كانون الثاني) . فيليب الثاني يصدر مرسوماً يحظر على الأندلسيين التخاطب بالعربية أو مزاولة أي شعائر أو عادات إسلامية .
١٥٦٨	٩٧٥	(الخميس ١٥ نيسان/ ١٧ شوّال) . اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى .
١٥٦٨		(٢٤ كانون الأول) . الثوار الأندلسيون يشنون هجوماً مباغتاً على غرناطة ويوقعون خسائر كبيرة بحاميتها .
١٥٦٩		(٦ نيسان) . دون خوان النمسوي يغادر مدريد إلى غرناطة لتولي مهمة قمع الثورة الأندلسية الكبرى التي عمّت الجنوب .
١٥٦٩	٩٧٧	(السبت ١٨ حزيران/ ٣ محرم) . الثوار الأندلسيون يحاصرون مدينة سيرون في

وادي نهر المنصورة ويتمكنون في ما بعد من احتلالها.

١٥٦٩ (٢٣ حزيران). فيليب الثاني يصدر مرسوماً بنفي أهل غرناطة الى الشمال.

١٥٧٠ (بداية أيلول). اربعة جيوش تنطلق لابادة الثوار وتتمكن بحلول منتصف تشرين الأول من دحر التجمعات الرئيسية في معاقل الثورة.

١٥٧٠ (الخميس ١٩ تشرين الأول). فيليب الثاني يصدر مرسوماً يخول فيه الجنود قتل الثوار الأندلسيين وسبي نسائهم.

١٥٧٠ (٢٨ تشرين الأول). فيليب الثاني يصدر مرسوماً بنفي الأندلسيين من الجنوب.

١٥٧١ (قبل انتصاف السنة). قوات فيليب الثاني تتمكن من إطفاء آخر جذوات الثورة الأندلسية الكبرى واتباع ذلك باعمال انتقام وتنكيل بشعة.

١٥٧١ (٧ تشرين الأول). دون خوان يهزم الأسطول العثماني في معركة ليبانت.

١٥٧٢ (٦ تشرين الأول). فيليب الثاني يصدر مرسوماً خاصاً بمنع الأندلسيين من استخدام اللغة العربية.

١٥٨٨ (٢١ تموز). الأسطول الانكليزي يهاجم الأرمادا وتؤدي العواصف الى إخفاق مهمة الأسطول القشتالي في كسر انكلترا.

١٥٩٤ محاكم التحقيق الإسبانية تعتقل ٩٦ أندلسياً.

١٥٩٦ الحكومة القشتالية تعلن إفلاسها للمرة الثانية خلال ٢١ سنة.

١٦٠٩ بدء نفاذ معاهدة الهدنة بين الهولنديين والإسبان.

١٦٠٩ ١٠١٨ (الخميس ٩ نيسان/ ٤ محرّم). صدور مرسوم نفي الأندلسيين من إسبانيا.

١٦٠٩ (أيلول). وصول ثمانية آلاف جندي اسباني على متن السفن لترحيل الأندلسيين ابتداء من أندلسيي بلنسية.

١٦٠٩ الثاني من تشرين الأول (اكتوبر). إبحار مجموعة من السفن من ميناء دانية تحمل أول دفعة من الأندلسيين عدّت ٣٨٠٣ أشخاص.

١٦٠٩ ٢٥ تشرين الأول. الأندلسيون ينظمون انتفاضة شملت ٢٠ قرية.

١٦٠٩ ٢٦ تشرين الثاني. مقتل عدد كبير من الأندلسيين وسبي نسائهم وأولادهم بعد القضاء على انتفاضتهم.

١٦١٠ وثيقة من طليطلة تشير الى ان عدد الأندلسيين الطليطليين الذين وقعوا ضحية محاكم التحقيق بلغ منذ عام ١٥٧٥ نحو ١٩٠ أندلسياً.

١٦٢١ ٣١ آذار (مارس). موت فيليب الثالث.

١٧٢٨ (أيار). احراق ٤٥ أندلسياً بعد اتهامهم بالهرطقة.

١٧٢٨ (٢ تشرين الأول). احراق ٢٨ أندلسياً أحياء.

١٧٦٩ العثور على مسجد كان بعض الأندلسيين يستخدمونه للصلاة سراً.

١٧٨٠ (حتى عام ١٨٢٠) وثائق محاكم التحقيق تخلو خلال الأربعين سنة بين التاريخين من أي أسماء أندلسية معروفة.

١٨٠٨ جوزيف بونابرت شقيق نابوليون يصبح أمبراطوراً على إسبانيا ويلغي محاكم

التحقيق ويصادر ممتلكاتها وأرشيفها ويضعه في عهدة المؤرخ الإسباني خوان انطونيو لورنتي مؤلف «دراسة نقدية تاريخية في محاكم التحقيق الإسبانية». فرنادو السابع يحيي محاكم التحقيق بعيد رحيل الفرنسيين عام ١٨١٤ .

١٨٢٠ الإسبان يهاجمون قصور محاكم التحقيق بعد ثورة شعبية ويحرقون الملفات .

١٩٣٥ الوصيّة على العرش الإسباني الملكة كريستينا تصدر أوامرها بحل عصبة الإيمان junta de fè التي لم يعد لها عمل بعد الغاء محاكم التحقيق .

١٩٩٨ ١٩ تشرين الأول . البابا يوحنا الثاني ينظم حلقة دراسية في روما للبحث في تركة محاكم التحقيق وتحديد مسؤولية البابوية .

عهود الولاة والأمراء والخلفاء والملوك والأباطرة

أ-الولاة : وكان حكمهم ٤٢ سنة ميلادية بين ٧١٤ و٧٥٦ (٩٥-١٣٨) وهم :

عبد العزيز بن موسى بن نصير	ذو الحجة ٩٥-رجب ٩٧	٧١٤-٧١٦
أيوب بن حبيب اللخمي	رجب ٩٧-ذو الحجة ٩٧	٧١٦
الحر بن عبد الرحمن الثقفي	ذو الحجة ٩٧-رمضان ١٠٠	٧١٦-٧١٩
السمح بن مالك الخولاني	رمضان ١٠٠-ذو الحجة ١٠٢	٧١٩-٧٢١
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	ذو الحجة ١٠٢-صفر ١٠٣	٧٢١
عنبسة بن سحيم الكلبي	صفر ١٠٣-شعبان ١٠٧	٧٢١-٧٢٥
عذره بن عبد الله الفهري	شعبان ١٠٧-شوال ١٠٧	٧٢٥
يحيى بن سلمه الكلبي	شوال ١٠٧-ربيع الأول ١١٠	٧٢٥-٧٢٨
حذيفة بن الأحوص القيسي	ربيع الأول ١١٠-شعبان ١١٠	٧٢٨
عثمان بن ابي نسعة الخثعمي	شعبان ١١٠-محرم ١١١	٧٢٨-٧٢٩
الهيثم بن عبيد الكلابي	محرم ١١١-ذو القعدة ١١١	٧٢٩-٧٣٠
محمد بن عبد الله الاشجعي	ذو القعدة ١١١-صفر ١١٢	٧٣٠
عبد الرحمن الغافقي (٢)	صفر ١١٢-رمضان ١١٤	٧٣٠-٧٣٢
عبد الملك بن قطن الفهري	رمضان ١١٤-شوال ١١٦	٧٣٢-٧٣٤
عقبة بن الحجاج السلولي	شوال ١١٦-صفر ١٢٣	٧٣٤-٧٤١
عبد الملك بن قطن الفهري (٢)	صفر ١٢٣-ذو القعدة ١٢٣	٧٤١
بلج بن بشر القشيري	ذو القعدة ١٢٣-شوال ١٢٤	٧٤١-٧٤٢
ثعلبة بن سلامة العاملي	شوال ١٢٤-رجب ١٢٥	٧٤٢-٧٤٣
أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	رجب ١٢٥-رجب ١٢٧	٧٤٣-٧٤٥
ثوابة بن سلامة الجذامي	رجب ١٢٧-آخر ١٢٨	٧٤٥-٧٤٦
عبد الرحمن بن كثير اللخمي	ربيع الأول ١٢٩- ربيع الثاني ١٢٩	٧٤٦
يوسف بن عبد الرحمن الفهري	ربيع الثاني ١٢٩-ذو الحجة ١٣٨	٧٤٦-٧٥٦

ملاحظة : اغتيل عبد العزيز بن موسى بن نصير فيما استشهد أربعة ولاة في غالة (فرنسا) هم السمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبد الرحمن الغافقي (في ولايته الثانية)، وعقبة بن الحجاج السلولي.

ب-الأمراء والخلفاء : وكان حكمهم ٢٥٧ سنة ميلادية بين ٧٥٦ و١٠١٣ (١٣٨-٤٠٣) وهم :

عبد الرحمن الأول (الداخل)	١٣٨-١٧٢	٧٥٦-٧٨٨
هشام الأول (المرتضى أو الرضا)	١٧٢-١٨٠	٧٨٨-٧٩٦
الحكم الربضي (الأول)	١٨٠-٢٠٦	٧٩٦-٨٢٢

عبد الرحمن الأوسط (الثاني)	٢٠٦-٢٣٨	٨٢٢-٨٥٢
محمد بن عبد الرحمن	٢٣٨-٢٧٣	٨٥٢-٨٨٦
المنذر بن محمد	٢٧٣-٢٧٥	٨٨٦-٨٨٨
عبد الله بن محمد	٢٧٥-٣٠٠	٨٨٨-٩١٢
عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) حفيد الأمير عبد الله وفي عهده اعلنت الخلافة		
سنة ٩٢٩ ميلادية (٣١٦ هجرية)	٣٠٠-٣٥٠	٩١٢-٩٦١
الحكم الثاني (المستنصر بالله)	٣٥٠-٣٦٦	٩٦١-٩٧٦
هشام الثاني (المؤيد بالله)	٣٦٦-٤٠٣	٩٧٦-١٠٠٩
جـ-عهد الطوائف	٤٠٠ -٤٨٤	١٠٠٩-١٠٩١
د-عهد المرابطين	٤٨٤-٥٢٠	١٠٩١-١١٢٦
هـ-عهد الموحدين	٥٤٠-٦٢٠	١١٤٥-١٢٢٣

و- سلاطين غرناطة : وكان حكمهم ٢٦٩ سنة بين ١٢٢٣ و١٤٩٢ (٦٢٠-٨٩٧) وأهمهم :

محمد (الأول) بن يوسف بن الأحمر	٦٣٥-٦٧١	١٢٣٨-١٢٧٢
أبو الحسن علي بن سعد (الغالب بالله)	٨٦٨-٨٨٧	١٤٦٣-١٤٨٢
أبو عبد الله محمد ١١ (الملك الصغير)	٨٨٧-٨٨٨	١٤٨٢-١٤٨٣
أبو عبد الله محمد ١٢ (الزغل)	٨٨٨-٨٩٢	١٤٨٣-١٤٨٧
أبو عبد الله محمد (المرة الثانية)	٨٩٢-٨٩٧	١٤٨٧-١٤٩٢

* * *

أهم حكام الدويلات والممالك الشمالية والإسبانية

أستورياس وليون : ينسب حكّام أستورياس وليون أنفسهم إلى بلايو Pelayo القوطي الذي فر بعد الفتح وحكم مجموعة من الاتباع . خلف بلايو ابنه فافيلة Fafila لكن الأخير لم يترك عقباً . تزوجت أخته أرمسندة ألفونصو Alfonso ابن بطرة Pedro فكان مؤسس أول دُويلة شمالية حقيقية وهو :

ألفونصو الأول «الكاثوليكي»	١٢١-١٤٠	٧٣٩-٧٥٧	Alfonso I
فرويلة الأول	١٤٠-١٥٩	٧٥٧-٧٧٥	Fruela I
ألفونصو الثاني (أذفنش الثاني)	١٧٥-٢٢٧	٧٩١-٨٤٢	Alfonso II
ردمير الأول	٢٢٧-٢٣٦	٨٤٢-٨٥٠	Ramiro I
اردون الأول	٢٣٦-٢٥٢	٨٥٠-٨٦٦	Ordono I
ألفونصو الثالث (أذفنش الثالث)	٢٥٢-٢٩٧	٨٦٦-٩١٠	Alfonso III
غرسيه الأول	٢٩٧-٣٠١	٩١٠-٩١٤	Garcia I
أردون الثاني	٣٠١-٣١٢	٩١٤-٩٢٣	Ordono II
ردمير الثاني	٣٢٠-٣٣٩	٩٣٢-٩٥٠	Ramiro II

ردمير الثالث	٣٥٥-٣٧٥	٩٦٦-٩٨٥	Ramiro III
ألفونصو الخامس	٣٨٩-٤١٨	٩٩٩-١٠٢٧	Alfonso V

نافار : إحدى مملكتين كانتا تابعتين لليون ثانيتهما قشتالة . انتقل مركز الثقل الى نافار ومن ملوكها :

سانشو غرسيه (شانجة غرسيه) الأول	٢٩٣-٣٥٩	٩٠٥-٩٢٦	Sancho Garces I

غرسيه سانشو (الأول) الذي حكم تحت وصاية أمه المسماة «طوطة»، وربما كانت عمّة الخليفة عبد الرحمن الناصر في الأمومة

	٣١٤-٣٥٩	٩٢٦-٩٧٠	Garcia Sanchez I
سانشو غرسيه الثاني (أبركة)	٣٥٩-٣٨٥	٩٧٠-٩٩٣	Sancho Garces II
سانشو غرسيه (الثالث أو الكبير)	٣٩٠-٤٤٦	١٠٠٠-١٠٣٥	Sancho Garces III

اشتدت المنافسة بين ممالك الشمال في السنوات الأخيرة من حكم سانشو غرسيه الكبير فقسّم المملكة بين ابنائه الأربعة كما جرت عليه في ذلك الزمان . بسط ابنه الأكبر فرناندو الأول (فردلند) Fernando I سيطرته على ليون وجليقية وقشتالة، وحصل ردمير على أرغون، وأخذ غنصالو Gonzalo أواسط البرت (البيرينيه) لكن الابن الرابع اغتيل . وأدى انتزاع منطقة الروخة الخصبة الواقعة شمال نهر إبرة جنوب غربي بامبلونة (بنبلونة) الى عزل مملكة نافار، فانحصر تأثيرها في الأندلس بطرق مباشرة اعتباراً من سنة ١٠٥٤ (٤٤٦). وقسّم فرناندو الأول مملكته على أولاده الثلاثة فأخذ ألفونصو السادس (الفنش) أستریاس وليون، وحصل سانشو (شانجة) على قشتالة، بينما كانت جليقية والقسم الأعلى، مما عرف باسم البرتغال في ما بعد، من نصيب أصغر الابناء غرسيه . وأدى اغتيال الأخوين لاحقاً إلى انفراد ألفونصو السادس بحكم المملكة كلها . وطرأت تغيرات عدّة على جغرافية الممالك الآيبرية الشمالية ونفوذها إلا أن الأهمية انحصرت بمملكتي قشتالة وأرغون وهكذا تكون فترة حكم الملكين الرئيسيين السابقين :

قشتالة :

فرناندو الأول (فردلند)	٤٢٦-٤٥٨	١٠٣٥-١٠٦٥	Fernando I
ألفونصو السادس (الفنش)	٤٦٥-٥٠٢	١٠٧٢-١١٠٩	Alfonso VI
ألفونصو السابع (البرجوني)	٥٢٠-٥٥٢	١١٢٦-١١٥٧	Alfonso Raimundex VII
ألفونصو الثامن «النبيل»	٥٥٣-٦١١	١١٥٨-١٢١٤	Alfonso VIII
فرناندو الثالث (فراندة)	٦١٤-٦٥٠	١٢١٧-١٢٥٢	Fernando III
ألفونصو العاشر «العالم»	٦٥٠-٦٨١	١٢٥٢-١٢٨٤	Alfonso X
ألفونصو الحادي عشر	٧١٢-٧٥١	١٣١٢-١٣٥٠	Alfonso XI
إيزابيلا (ازابل)	٨٧٩-٩١٠	١٤٧٤-١٥٠٤	Isabella

أرغون :

سانشو ردمير (شانجة بن رد مير)	-٤٨٧	-١٠٩٤	Sancho Ramirez
ألفونصو الأول (المحارب)	٤٩٧-٥٢٨	١١٠٤-١١٣٤	Alfonso I
رامون برنجير الرابع (رمند بن بلنقير)	٥٢٥-٥٥٨	١١٣١-١١٦٢	Ramon Berenguer IV
ألفونصو الثاني (الفونش الثاني)	٥٥٨-٥٩٢	١١٦٢-١١٩٦	Alfonso II
بدرو (بطرة) الثاني «الكاثوليكي»	٥٩٣-٦١٠	١١٩٦-١٢١٣	Pedro II

خايمي (جايمش) الأول «الغازي»	٦١٠-٦٧٥	١٢١٣-١٢٧٦	Jaime I
فرناندو الخامس (الثاني)	٨٨٤-٩٢٢	١٤٧٩-١٥١٦	Fernando V

البرتغال :

انفصلت البرتغال عن قشتالة سنة ١٠٩٤ (٤٨٧) واستقلت سنة ١١٢٨ (٥٢٢)، ثم كرس البابا كيانها كدولة مستقلة سنة ١١٧٩ وسمح لأمرائها أن يتكنّوا بوصف الملوك ومن أهم هؤلاء :

ألفونصو إنريكيث (ابن الرنك)	٥٣٣-٥٨١	١١٣٩-١١٨٥	Alfonso Enriquez
سانشو الأول (شانجة)	٥٨١-٦٠٨	١١٨٥-١٢١١	Sancho I
ألفونصو الثاني (الفونش)	٦٠٨-٦٢٠	١٢١١-١٢٢٣	Alfonso II

إسبانيا:

كارلوس الخامس (الأمبراطور)	٩٢٥-٩٦٣	١٥١٩-١٥٥٦	Carlos V
الملك فيليب الثاني	٩٦٣-١٠٠٦	١٥٥٦-١٥٩٨	Felipe II
الملك فيليب الثالث	١٠٠٦-١٠٣٠	١٥٩٨-١٦٢١	Felipe III

اهم المحققين العامين في إسبانيا

توماس دي توركيماده	١٤٨٣-١٤٩٨	Tomás de Torguemada
دييغو ديثا	١٤٩٩-١٥٠٤	Diego deza
فرانسيسكو خيمينس (قشتالة فقط)	١٥٠٧-١٥١٧	Francisco Jimenes de Cisneros
أدريان الأترشتي (أرغون ثم إسبانيا)	١٥١٦-١٥٢٢	Adrian of Utrecht
ألفونصو مانريك (إسبانيا)	١٥٢٣-١٥٣٨	Alfonso Manrique
فرناندو فالديس	١٥٤٧-١٥٦٦	Fernando Valdés
دييغو إسبينوزا	١٥٦٦-١٥٧٢	Diego Espinosa
غاسبار دي غيروغا	١٥٧٣-١٥٩٤	Gaspar de Quiroga
خوان دي زونييغا	١٦٠٣-١٦٠٨	Juan de Zuñiga
برناردو دي ساندوبال ي روخاس	١٦٠٨-١٦١٨	Bernardo de Sandoval y Rojas
خوان دي كامارغو	١٧٢٠-١٧٣٣	Juan de Camargo
رامون جوزيف يث آرثي أي رينوسو	١٧٩٨-١٨٠٨	Ramon Josef de Arce y Reynoso
خيرونيمو كاستييون ي سالاس	١٨١٨-١٨٣٤	Gerónimo Castellon y Salas

مصادر البحث العربية

- **«دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها»**. الدكتور احمد بدر.
- **«التاريخ الاندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»**. الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، (١٩٧٦).
- **«البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»**. أبو عبدالله محمد المراكشي ابن عذاري. (جزءان). تحقيق ج. س كولان، وليفي بروفنسال، «طبعة بيروت».
- **«العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر»**. ابن خلدون، (بيروت ١٩٦٨).
- **«صورة الأرض»**. أبو القسام ابن حوقل النصيبي. (ليدن ١٩٣٨)، وأعادت طباعته دار صادر، بيروت.
- **«تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين»**. الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت ١٩٧١).
- **«الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية»**. مجهول المؤلف.
- **«نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»**. المقري، تحقيق الدكتور احسان عباس، (بيروت ١٩٦٨).
- **«نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين»**. محمد عبدالله عنان، (القاهرة ١٩٦٦).
- **«أزهار الرياض في أخبار عياض»**. شهاب الدين احمد المقري التلمساني (المقري)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (القاهرة ١٩٢٩-١٩٤٢).
- **«نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر»**. مجهول المؤلف، (العرائش ١٩٤٠).
- **«أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر»**. ابو العباس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي، (مدريد ١٩٥٧).
- **«تاريخ افتتاح الأندلس»**. أبو بكر محمد بن القوطية، (بيروت ١٩٥٧).
- **«تاريخ الادب الاندلسي – عصر سيادة قرطبة»**. الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت١٩٦٩).
- **«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»**. ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني، (القاهرة ١٩٣٩).

- **«الإحاطة في أخبار غرناطة»**. لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، (القاهرة ١٩٧٤).
- **«المعجب في تلخيص اخبار المغرب»**. محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، (القاهرة ١٩٦٣).
- **«صفة جزيرة الأندلس» (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)**. أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، تحقيق ليفي بروفنسال، (القاهرة ١٩٣٧).
- **«دولة الاسلام في الأندلس»**. محمد بن عبدالله عنان، (القاهرة ١٩٦٩).
- **«المقتبس في أخبار بلد الأندلس»**، ابن حيان، (بيروت١٩٧٣).
- **«تاريخ أوروبا –العصور الوسطى»** (القسم الأول). فيشر. ترجمة محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريني، (القاهرة ١٩٦٦).
- **«العرب في إسبانيا»**. استانلي لين–بول، ترجمة علي الجارم، (القاهرة ١٩٦٠).
- **«تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس»**. الدكتور عبد العزيز سالم، (بيروت ١٩٦٢).
- **«الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال»**. محمد عبدالله عنان، (القاهرة ١٩٦١).
- **«الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية»**. شكيب ارسلان، (فاس ١٩٣٦).
- **«مذكرات الامير عبدالله، آخر ملوك بني زيري بغرناطة»**. عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري، تحقيق ليفي بروفنسال، (القاهرة ١٩٥٥).
- **«فجر الأندلس – دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية – ٧٥٦–٧١١»**. الدكتور حسين مؤنس، (القاهرة ١٩٥٩).
- **«أثر العرب في الحضارة الأوروبية – نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة»**. جلال مظهر، (١٩٦٧).
- **«الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية»**. كريم عجيل حسين، (بيروت ١٩٧٦).
- **«حضارة العرب في الأندلس»**. ا. ليفي بروفنسال، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت).
- **«رحلة الأندلس»**. الدكتور حسين مؤنس، (القاهرة ١٩٦٣).
- **«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»**. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، (بيروت ١٩٦٨).
- **«بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس»**. أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، (القاهرة ١٩٦٧).
- **«مقدمة ابن خلدون»**. تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، (القاهرة ١٩٦٥).

- **«مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام»**. محمد عبدالله عنان، (القاهرة ١٩٥٢).
- **«تاريخ مسلمي إسبانيا»**. ر. دوزي، ترجمة الدكتور حسن حبشي، (القاهرة ١٩٦٣).
- **«الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»**، لوي كارديك، ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي، (زغوان، ١٩٨٣).
- **«الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين»**، الدكتور عبد الجليل التميمي، زغوان (١٩٨٩).
- **«تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس»**. الدكتوران السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، (بيروت ١٩٦٩).
- **«تاريخ اليعقوبي»**. جزءان. دار بيروت، (بيروت ١٩٨٠).
- **«تاريخ فلسطين السياسي في العصور الإسلامية»**. الدكتور فاروق عمر، (١٩٨٣).
- **«أخبار الزمان»**. أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. دار الأندلس، بيروت.
- **«أسد البحار ابن ماجد»**، رشدي صالح، دار القدس، (بيروت ١٩٧٤).
- **«تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»** (رحلة ابن بطوطة)، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، دار بيروت، (بيروت ١٩٨٠).
- **«المسالك والممالك»**، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر أبو عبيد البكري، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، (القاهرة ١٩٦١).
- **«التكملة لكتاب الصلة»**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ابن الابار)، (القاهرة ١٩٥٦).
- **«المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب»**، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشي، (طبعة ٢)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- **«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»**، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ج٢ و٣، (الدار البيضاء ١٩٥٤).
- «**أخبار مجموعة**»، لمؤلف مجهول، من منشورات «دار اسامة» (دمشق) وهي مُصوّرة عن النسخة المطبوعة في مدريد عام ١٨٦٧.
- **«تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»**، خالد بن عيسى البلوي، تحقيق الحسن السائح، المغرب.